المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السادس بعد المائة

١ مارس سنة ١٩٤٥ — ١٦ ربيع اول سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

— ٢ —

لغز الورقة الخضراء

في طليعة ألغاز الطبيعة التي يوليها العلماء أعظم اهتمام ، لغز الورقة الخضراء . فالأوراق الخضر ، أو جميع الاجزاء الخضر في كل نبات ، هي أكبر وأعجب معامل كيميائية على سطح الارض ، فهي في ما تركبه ، تعدُّ أعظم منتج لمواد الطعام ، وأغزر مورد للوقود ، وبفعلها يرتبط مصير الانسان نفسه . وأظهر مظاهر هذا النشاط الحيوي الكيميائي الصناعي ، في الأوراق الخضر ، هو اصطلاح ضوء الشمس وثاني أكسيد الكربون والماء على تركيب السكر . وهذا التركيب يتم في خلايا الورق والجزوع . ولما كانت الأوراق والجزوع ، خضراً على الغالب ، فان معنى ذلك انها لا تستطيع أن تنتفع إلاّ بطائفة من أشعة الشمس ذات طول معين . وبعد أن يتركب السكر (أو أصناف السكر) يتحوَّل إلى نشاء وخشب . وقد قدَّر العلماء ان مساحة تبلغ ذراعاً مربعة من سطح الورق الاخضر تركب ثلث أوقية من السكر في النهار ، ولا تحتاج الاّ إلى أكسيد الكربون والماء من المواد الأولية .

وقد كشف العلماء أن هذا العمل الكيميائي ، يحتاج الى أنزيمات لكي يتم . فهي مواد تؤثر في التفاعل الكيميائي الحيوي ، على نمط تأثير الوسيط الفلزي في التفاعل الكيميائي العادي ، أو هي تفعل فعل الأنزيمات الهاضمة في اللعاب في تهيئة عناصر التفاعل للتفاعل . وهذه الأنزيمات توجد في الورقة . أما الخضرة فلا غنى عنها كذلك . وقد أجرى فريق

من العلماء تجربة بلغت الغاية دقة وعجباً، فقد أحدثوا تغييراً في بناء المسبغي (الكروموسوم) في نباتات اتخذوها موضوعاً للتجربة في المعمل، فدرت في الصبغيات، عوامل الوراثة التي تحدث الخضرة في النبات. وصار ورق النبات أصفر لا أخضر، فثبت لهم ان هذا النبات عاجز عن أن يصنع بطريقته المألوفة كل ما يحتاج اليه من غذاء. فعمدوا حينئذٍ، الى ترقيع جذع النبات، الذي حدث فيه هذا التحول العظيم، بجذع أخضر، يستطيع أن ينتفع بضوء الشمس، فاذا هو في منزلة مصنع يصنع الغذاء الذي مست اليه حاجة النبات، حين أزيلت خضرته

إن طريقة انتفاع النبات بضوء الشمس لتركيب السكر من الماء وثاني أكسيد الكربون لهي من أعظم الحقائق شأناً في تاريخ الحياة على سطح هذا السيار. ومع ذلك فلم يتيسر للعلماء النفوذ إلى سرها. والناس لا ينتفعون بنتاج هذا التركيب، إلا في المرتبة الثانية أو الثالثة على الغالب. نعم قد نكون من يحبون أكل السلطة الخضراء، أو الخس أخضر غضاً، فننتفع بما يصنعه لنا النبات، ولكنا على الأكثر ندع المواشي تأكل النبات الأخضر (أي المصانع الكيميائية وما تصنع) ثم نأكل نحن لحم المواشي.

ولو استطعنا أن نفعل منذ الولادة، ما تفعله الورقة الخضراء، أي أن ننتفع بضوء الشمس في تركيب السكر من الماء والهواء، لقضي على مشكلة من أخطر المشكلات التي يواجهها البشر. وإذاً لتغيرنا بكل ما نحتاج اليه من غذاء بأقل جهد، ولأشرق فجر عصر جديد في حياة الناس. ولذلك ترى العلماء مكبين على استطلاع السر، ومن يدري فقد يصح ذات صباح فنقرأ خبراً مطوياً في زاوية محجوبة من صحيفة، أن السر قد كشف، على حين نقرأ في الصحيفة نفسها عنواناً مكتوباً بحروف عراض، وصف معركة أو جريمة أو مولد خمسة توائم.

وإذا كشف السر، فعسى أن يكون للجهاز الرحوي (سيكلوترون) يد كبيرة في ذلك. وأحد منافع الجهاز الرحوي، انه يصلح لتحويل طائفة من العناصر غير المشعة، عناصر مشعة. وليس يهمنا في هذا البحث أن مدة إشعاع هذه العناصر تختلف طولاً وقصراً. وإنما يهمنا ان العلماء صنعوا أجهزة دقيقة، تتبين مسير ذرات هذه العناصر في أجهزة الهضم وأوعية الدم، في أجسام الحيوان والنبات، وقد عمد العلماء إلى التوسل بذرات العناصر التي استحدث فيها الإشعاع بالجهاز الرحوي، لاستكشاف المواد والتفاعلات الكيميائية في النبات. فقد تمكن الدكتور روبن أحد أساتذة جامعة كاليفورنيا من أن يصنع قدراً مشعاً

من ثاني أكسيد الكربون وتتبع امتصاص النبات لجزيئات هذا المركب المشع والطريقة التي اتبعها في تحويل ثاني اكسيد الكربون مشعًّا تقوم على إطلاق قذائف الجهاز الرحوي على ذرات البرو فتقذف منها ذرات كربون مشع تستعمل في توليد جزيئات ثاني اكسيد الكربون فتكون مشعة ؛ فتوضع هذه الجزيئات في فضاء وعاء تنمو فيه نباتات مثل الشعير والقمح وعبّاد الشمس فتمتصها ، ثم يشرّح النبات أو يفحص بالمطياف أو بحلل تحليلاً كيميائيًّا لمعرفة ذرّات الكربون فيه . وقد عانى هذا العالم مشقة عظيمة في بدء البحث لأن ذرات الكربون المشعة تفقد قدرة الإشعاع في ست ساعات ، ولذلك عمد إلى ذرّات نظير isotope من نظائر الكربون لا تفقد قدرة الإشعاع المستحدث فيها إلاّ بعد انقضاء نصف مليون سنة . وعليها مدار التجارب الآن .

ومع ذلك فلا يزال سرُّ الورقة الخضراء باب موصداً ، يحجب وراءهُ كنوزاً من المعرفة لا تقوّم بمال .

لغز بدء الحياة

ان الغالب في دوائر علوم الأحياء ، هو القول بأن نشوء الأجسام الحية على سطح الأرض تمَّ من مواد غير حية . فكيف نشأت الخلية الأولى ؟

والخلايا كشكل شيء في الكون مركبة من جزيئات والجزيئات مركبة من ذرّات . وكل ذرّة تشبه — إلى حدٍّ ما — نظاماً شمسيًّا قوامه دقائق موجبة الكهربائية وأخرى سالبتها ؛ فالمادة الأصلية التي تتقوّم بها الخلية الحية ، هي مادة لا حياة فيها . ولكن الخلية تتنفس وتتكاثر . والانتظار ليس مقتصراً على الخلية ، بل يشمل مئات وألوف من الأجسام الداخلة في تركيبها كالصبغيات وما أشبه . ومن هذه الخلية ، تتركب جميع أجسام الأحياء ، من سمك وطير وبشر ، ومن مجنون في مستشفى إلى رجالي بلغوا قمم العبقرية ، من أمثال سقراط وميكل انجلو ونيوتن وبيتوفن . فكيف بدأت هذه الخلية ؟ وكيف اصطلحت عوامل الطبيعة على جمع الذرّات والجزيئات جمعاً ينشيء منها خلية حية ؟

ليس يملك العلم جواباً شافياً عن هذا السؤال . ولكنهُ يملك رأياً نوجزهُ فيما يلي :

بعد ما بردت كرة الأرض حتى غدت حرارة قشرتها معتدلة ، كان جانب كبير من سطح الأرض يغطيه الماء . وكان الغلاف الغازي المحيط بالأرض يحتوي على بخار الماء وثاني اكسيد الكربون والنتروجين وبعض غاز النشادر ، ومن الرجح ان مقدار الأكسجين فيه كان يسيراً جدًّا . أما الأكسجين الذي نجده في الهواء الآن فمردّه إلى الأكسجين الذي كان متحداً

بالكربون في ثاني إكسيد الكربون. وقد انطلق الأكسجين من عقاله بعد أن ترسب الكربون صخوراً عضوية على كربونات الجير مثلاً ، أو فحماً في عروق الفحم ، أو نفطاً في طبقات الأرض . وكان لنمو النبات شأن أي شأن في انجاز هذا العمل الواسع النطاق . فعمل التركيب الضوئي ، يتم في الأوراق الخضر ، بفعل اليخضور (كلوروفيل) وإشعاع الشمس ، فيفصل الكربون عن الأكسجين — وهما متحدان في ثاني إكسيد الكربون كما تقدم — فينطلق الأكسجين حراً في الهواء ويترسب الكربون . ومن أدق البحوث العلمية الحديثة ، بحث غرضه الموازنة بين مقدار الأكسجين الحر في الهواء ، ومقدار الكربون المستقر في أشكال شتى في قشرة الأرض ، وقد أسفرت هذه الموازنة عن حمل العلماء على القول بأن كل أكسجين الهواء تقريباً مرده الى الأكسجين الذي كان متحداً بالكربون في ثاني إكسيد الكربون ، عند ما كان مقدار هذا الغاز المركب أعظم جداً من مقداره الآن

ولا بد أن الاوزون يحجب الأشعة التي فوق البنفسجي بعض الحجب . وجزيء الاوزون يتركب من ثلاث ذرات من الأكسجين . ومعظم اوزون الهواء الآن في طبقات الجو العليا فهي أشبه ما يكون بدثار يدثر الأرض على بعد عظيم من سطحها . ففي العصور الخالية عند ما كان مقدار الاوكسجين الحر في الهواء أقل كثيراً مما هو الآن ، كان ما يصل سطح الأرض من الاشعاع الذي فوق البنفسجي ، أعظم مما يصلها الآن .

ومن الحقائق المعروفة أن جزيئات ثاني إكسيد الكربون ، تتفاعل متأثرة بالأشعة التي فوق البنفسجي ، مع جزيئات الماء ، فتولد جزيء مادة « كربو ايدراتية » بسيطة كالنشا أو السكر . فاذا كان هناك نشادر في المكان الذي يحدث فيه هذا التفاعل ، تولد جزيء أشد تعقيداً وأكبر حجماً من جزيء السكر او النشا . وقد يقترب في حجمه وتعقيد بنائه من جزيء البروتين . وعلى هذا الوجه تتولد المادة العضوية من المادة غير العضوية . ولكن هذه المادة العضوية ليست مادة حية ، فكيف نفخت فيها شعلة الحياة .

على كر الزمن تتولد مقادير كبيرة من المواد العضوية كافية لتغذية الأحياء البسيطة التي قد توجد أو تظهر ، والرأي أن تأثير أشعة الشمس ، ولاسيما الأشعة قصيرة الأمواج في طيفها أفضى على الزمن إلى نشوء جزيئات عضوية على جانب من تعقيد البناء كافٍ لظهور بعض خواص الأحياء فيها ، واذا كان هذا الفعل قد تم حقيقة فالعوامل المؤاتية لنمو هذه الأجسام الحية كانت متوافرة . فالطعام وفير والمنافسة منتفية . أما اذا ظهرت جزيئات من هذا القبيل على النحو المتقدم فسألة فيها نظر . ولعل جزيئاً واحداً ظهر وتكاثر ، فجميع الأحياء تتأثر تأثراً واحداً بالضوء المستقطب ، وتتحرك حركة واحدة في مستوى الاستقطاب بينما

هناك حركتان مشاهدتان في الأجسام غير الحية ، وفي الأجسام العضوية البسيطة كأصناف البكتريا والفطريات . فكأن هذه الصفة دليلٌ على أن جميع الأحياء ترتد الى هذا الأصل — الجزيء — البعيد البسيط

واذا ظهر جزيءٌ من هذا القبيل واتصف بخواص الأحياء فنشوء الأحياء منهُ وتنوعها مسألة زمن طويل وتفاعل مستمر . ويكفي أن نسلم بنظرية "التطوُّر العضوي" لتفسير أشكال الأحياء المتعددة التي تعمر سطح الأرض سواءٌ أنباتية كانت أم حيوانية

وغاية ما يستطيعه البحث العلمي الآن في سعيه الى ادراك أصل الحياة انما هو التوفر على بحث اشكال الحياة البدائية وهي مرتبة بحسب تعقد بنائها وتنظيم جزيئاتها كما يلي من الأدنى الى الأعلى : الازيمات ، الفيروسات الراشحة ، البكتيريوفاج (آكل البكتيريا) ، البكتيريا ، البروتوزوى . الأحياء المتعددة الخلايا من نبات وحيوان والانسان في أوجها .

ولعلّ البكتيريا هي أدنى الأجسام تعقيداً وتنظيماً في البناء التي ثبت انها حية حقيقة ولكن بعض الافعال التي تتصف بها أجسام دون البكتيريا مرتبة ، تشبه أفعال الأجسام الحية فعلاً من بعض نواحيها .

ولا يعلم ان الازيمات الموجودة في الخائر ، والفيروسات الراشحة والبكتيريوفاج ، تستطيع أن تتكاثر وحدها ، فالازيمات تتكاثر في أثناء فعل التخمر ، والفيروسات تولد خواصها في أجسام أرقى منها مرتبة في سلم الحياة كما يحدث عند ما يصاب ورق التبغ بمرض مرده الى فيروس والبكتيريوفاج يتكاثر في أثناء قضائه على البكتيريا أما البكتيريا والبروتوزوى فتتكاثر بانشطار الخلايا على ان تكون درجة الحرارة وأحوال البيئة من طبيعية وكيميائية مؤاتية لهذا الانشطار . ولذلك من أشق الأمور أن يحكم العلماء : أأمةُ الأجسام التي دون البكتيريا أجساماً حية حقيقةً أم لا . فالأشعة التي فوق البنفسجي أفعل جداً في تدمير البكتيريا والأحياء التي فوقها في سلم الحياة ، منها في تدمير الأجسام التي دونها في هذا السلم . وهذه الحقيقة قد تكون كافية لتعليل وجود خلايا نصف حية على سطح الارض عندما كان الاشعاع الذي فوق البنفسجي الواصل الى سطح الارض أعظم جداً — لقلة الاكسجين الحر — منه الآن ومن الجائز ان الأجسام التي فيما تحت السلم — أي الازيمات والفيروسات والبكتيريوفاج — التي تعجز الآن عن التكاثر وحدها لغير معونة تسدى اليها من أجسام أخرى ، كانت قادرة على التكاثر في أحوال أشد مواتاة لتكاثرها عندما كانت الارض في بدء مرحلتها ككرة صلبة . ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الجنين الانساني يمر بالمراحل الاولى بعد تكونه في

معزل تام عن الاكسجين ، والنمو في هذه المرحلة الاولى من حياة الجنين يسير على وجه أشبه ما يكون بفعل التخمر وهو فعل يتم بمعزل عن الهواء أي بمعزل عن الاكسجين . ولعلّ هذه المرحلة من حياة الجنين ليست إلاّ ظلاً للمرحلة الاولى من مراحل الحياة على سطح الارض .

لغز الملاءمة في الاحياء

كيف نشأت أشكال الحياة العليا — في النبات والحيوان — من الاشكال الدنيا ؟

ليس ثمة ريبٌ في حقيقة التطوُّر . والعلماء يعرفون جانباً كبيراً من السبيل الذي سار فيه التطوُّر منذ أقدم العصور . ولكنّ المسألة الاساسية المحيِّرة هي فهم سبب التطوُّر وطريقته . والعلماء اليوم أضعف ثقة مما قبل في سبب « أصل الأنواع » وطريقة تطورها حتى تلائم البيئة التي تعيش فيها ، مما كانوا منذ ستين سنة أو سبعين .

ففي الخمس والثمانين سنة التي انقضت منذ نشر كتاب أصل الانواع ، جمع العلماء من الأدلة على ثبوت حقيقة التطور ما يجعلها في حرز حريز من سهام النقد . ولكنهم جمعوا كذلك من الحقائق عن الوراثة والتباين ، ما يثبت ان الآراء القديمة التي اقترحت لتعليل التطور لم تعلله قط . فنظرية لامارك في توريث الصفات التي يكتسبها الآباء في حياتهم لا تقوم على أساس « ثابت » أو يجب تعديلها في ضوء ما عُرف عن تأثير الاشعة السينية في عوامل الوراثة . وإذا كانت الصفات المكتسبة كما وصفها لامارك لا تورّث فالانواع الجديدة المتصفة بصفات تمكنها من ملاءمة نفسها للبيئة لا يمكن أن تنشأ . أما مذهب داروين القائم على أن لكل صفة من صفات الجسم الحيّ مقاماً من حيث أثرها في الصراع الضعيف الناشب بين الاحياء ، وأن الصفات التي تمكن الكائن من الظفر في هذا الصراع تورّث الاجيال التالية فأقرب إلى الاستنتاج المنطقي منهُ إلى الحقيقة . ومعظم التباينات الداروينية لا قيمة لها في هذا النزاع ولا هي تورّث ، إنما هي في الواقع اختلاف يسير عن المتوسط السوي يقتضيه ناموس الاحتمال الرياضي أو يفسّرهُ ، وهي أضعف من أن يكون لها هذا الأثر الخطير في تغيير مصير صاحبها وسلالته ، وهي تورّث إذا كانت قريبة من المتوسط ، وتضعف قوة توريثها على قدر ما تبعد عنهُ .

على أننا في العهد الذي هدمت فيه نظريتا لامارك وداروين في تعليل التطوُّر لم يخرج أحد من العلماء تعليلاً جديداً كاملاً يحلُّ محلَّ التعليلين القديمين . ولعلّ رأي ده فريز في « التحوُّل الفجائي » mutation أهمها .

« البقية في آخر الاخبار العلمية »

فؤاد صروف

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرف الانسان

عن جسمه ونفسه في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

قد سبق ذكر تركيب العرق فليراجعه من يشاء — ونضيف على ذلك أن أهم غدد الجلد ثلاثة أنواع — غدد العرق وغدد تفرز مادة دسمة وغدد تفرز مادة صماخية وإفراز هذه يختلط مع بعضه فيزيد في لزوجة العرق على الجلد.

ولنفس السبب إذا وجد يوم شديد الحرارة بدرجة واحدة في القاهرة والاسكندرية فان الانسان يتأثر من الحر بالاسكندرية لرطوبة جوها أكثر مما يتأثر منه في القاهرة أو في أي جهة أخرى أقل رطوبة من الاسكندرية — لأن تبخر العرق من الجلد يحصل بسهولة في الجوّ الجاف — ومن حسن حظ المصطافين بالاسكندرية وشواطىء البحر ان حرارتها تكون عادةً أقل من حرارة داخل البلاد وان بها نسيم خفيف يلطف حرارة الجو وينعش الجسم — ومن المشاهد وقد لاحظته على نفسي ما يحصل في أوروبا وبالأخص في السهول والأماكن المشبعة بالرطوبة — ان خطر ازدياد الحرارة فيها يكون أكثر منه في البلاد الحارة فتزداد حرارة الجسم تدريجيًا لصعوبة تصريفها ويحصل هبوط في البنية واعياء شديد من الحر قد يؤدي الى ارتخاء العضلات وضيق التنفس وسرعة ضربات القلب وضعفها ثم الى هبوط وقد يعقبه الموت ولقد نقرأ في جرائد أوروبا حوادث وفيات في الصيف من اعياء الحر Heat Exhaustion أكثر مما يحصل في البلاد الحارة الجافة ومرض اعياء الحر شيء آخر خلاف ضربة الشمس Sun stroke.

• أذكر دليلاً آخر على تأثر الانسان من الحرارة في الجوّ المشبع بالرطوبة ما شاهدته عند ما يشتغلون في البساتين بين الأشجار وتحت ظلالها إذ يظهر عليهم التعب بسرعة رغماً عن انهم يشتغلون تحت ظلال الأشجار ولا يشعرون بالتعب بهذه السرعة إذا ما اشتغلوا في الخلاء في وسط الفيط والسبب واضح. وهو أن النسيم يكون معدوماً بين الأشجار

الكثيفة كما يكون الهواء بينها وتحت ظلالها مشبعاً بالرطوبة — فلا تحدث سرعة تبخر العرق الذي يلطف تبخره حرارة الجسم .

• والمعروف أن العرق إذا كان خفيفاً معتدلاً يؤدي فائدة في تعديل الحرارة وينبئنا أن وسائل مقاومة الجسم للحرارة قد ابتدأت أن تعمل لتحترس ولتقلل مجهوداتنا ولتستقل . ويستبشر أقارب المرضى إذا ما هلَّ عرق على مريضهم لأنه يلطف من شدة الحمى ويبشر بقرب الشفاء . ويتفرون من العرق الذي يحدث والجسم منخفض الحرارة ويعدونه دليلاً على الهبوط .

• نفرض الآن أن البنية لا تكيف بوسائلها الطبيعية لتخفيف ازدياد الحرارة فماذا تكون النتيجة . النتيجة تكون ظهور أعراض الاعياء من الحر التي تودي إلى الوفاة إن لم تتدارك بالعلاج السريع وليس التأثر من ازدياد الحرارة قاصراً على الانسان . بل نراه يؤثر تأثيراً سيئاً على الحيوانات ذات الوبر للأسباب الآتية :

أولاً أن حرارتها الطبيعية أعلا من حرارة الانسان الطبيعية، فحرارة الانسان الطبيعية ٣٧ درجة كما ذكرنا وأما حرارة الكلاب والقطط فهي ٣٩ درجة مئوية وحرارة الخراف والدجاج ٣٩½ والفراخ لا تعرق كثيراً لوجود الريش وكل من شاهد الفراخ في الحر يجدها ترفع أجنحتها عن جسمها وتفتح فمها وتلتقس بسرعة لتلطيف حرارة جسمها . وأما الكلب فان حركة تنفسه تزيد ويخرج لسانه لتصريف الحرارة — ويلاحظ أن الكلاب والدجاج والعصافير تغمس جسمها في الماء أو ترش عليه الماء لتخفيف الحرارة — وأغلب الحيوانات الشبه مائية كالبط حرارتها العادية تقرب من الاربعين ولذا فانها لا تقدر أن تعيش إلاَّ بجوار المياه . وحب الجاموس الماء مشهور لنفس السبب وخصوصاً أن نسبة مسطح جلدها إلى وزنها وجسمها قليل فتكون نسبة تصريف الحرارة عندها ضعيفة فتستعين بالعوم في الماء لهذا الغرض . وليس الاعياء من الحر قاصراً على الانسان لانه يصيب الحيوانات فكثيراً ما تحصل ودة للغنم إذا مشيت في الحر وقد حصل فعلاً في مزرعة ألبان بجوار القاهرة حادثة اعياء شديد من الحر لعدد كبير من الجاموس لانها تركت مدة طويلة في الشمس فظهرت عليها أعراض مقلقة زالت عند ما نقلت إلى الظل ورش عليها الماء .

وكثرة الملابس وضيقها لا يسهل عملية تشعع الحرارة ولا تبخر العرق وتكون بمثابة الوبر الغزير من جسم الحيوانات الوبرية والريش من جلد الطيور . وعند المدنيين (المعان) تعيق طبقة الدهن السميكة تحت الجلد فقد الحرارة منه بواسطة التشعع كما تعيق انتظام

الدورة الدموية في أوعية الجلد الشعرية ولذا يتعب البدينون من الحر أكثر من غيرهم .

شاعت في وقت ما عادة طلاء الجلد بمادة راتجة للتسلية في أعياد الكرنفال وغيرها وقد توفى بعض الاشخاص من هذا السبب عند وجودهم في أماكن شديدة الحر لفقد الجلد وظيفة تصريف الحرارة بواسطة العرق والإشعاع وكان الطلاء الراتج سبب هذه الاعاقة عن تأدية الجلد لهذه الوظيفة

شاعت أخيراً طريقة تكييف الهواء وهي طريقة لها فوائدها ومضارها ولكن منافعها أكثر من ضررها ولا تضر إلا إذا أسيء استعمالها . ولا يجب أن تخفض الحرارة بواسطتها في الصيف إلى درجة كبيرة وإن لا ترفع في الشتاء إلى درجة كبيرة أيضاً حتى لا يحصل فرق شاسع بين حرارة الغرفة وحرارة الشارع ، لأن ذلك يساعد على الاصابة بالبرد إذا ما دخل الانسان الغرفة صيفاً أو خرج منها شتاء ثم إلى الشارع لأنه يتعرض لفرق الحرارتين . فإذا كان الشارع في الصيف حرارته ٣٩ درجة وتكييف حرارة الغرفة على ١٥ كان الفرق ٢٤ درجة وهو فرق محسوس . وقس على عكس ذلك في الشتاء فتسهل الإصابة بالنوازل . ومن الضرر استعمالها في غرف الاطفال الاصحاء فإنها تكيف الحرارة لهم بدل أن تكيف بنفسهم الحرارة، حسب الظروف بالوسائل الفزيولوجية — فتكون النتيجة أن تضعف هذه الوظيفة عندهم . ومسألة كثرة الملابس لها نفس المضار ولكن بدرجة أقل . وعلى الآباء أن يعوّدوا أطفالهم من الصغر على قلة الملابس وعلى مواجهة التغيرات الجوية باحتراس ليعيدوا عيشة قريبة من الطبيعة فتنمو معهم وظائف المقاومة وتكييف البايسة على مختلف الظروف . ومن فوائد تكييف الهواء استعمالها صيفاً في غرف الاطفال المرضى باسهال الصيف الخطر على حياتهم، وقد لوحظ أن تكييف الهواء باعتدال واحتراس في غرفهم بالمستشفيات يسهل عليهم الشفاء .

وقد استعمل الجرّاحون تكييف الهواء في غرف العمليات الجراحية فكانت لها مزايا لا يستهان بها ، وتظهر فائدة ذلك واضحة جلية إذا ما علمنا أن الإنسان وهو تحت تأثير المنبج يفقد إلى درجة كبيرة وظيفة تكييف الحرارة ، البدنية ولا بد من وسائل اصطناعية لتكييف الحرارة حتى لا يتعرض المريض أثناء العملية للاصابة بالبرد . ولهذا السبب يلاحظ دائماً عند إنشاء المستشفيات أن تكون ذات العمليات متوسطة بين حجر المرضى وأن يعمل على أن لا يتعرض المريض لتيارات الهواء في الطرقات اثناء نقله من غرفة العمليات إلى غرفته.

• ونظرية صنع الترموس الذي شاع استعماله وعمت فوائده أساسها وضع الشيء المراد حفظ برودته أو حرارته في اناء صنع بحيث لا تسرق جدرته الحرارة لا بطريقة

الاشعاع ولا بطريقة توصيل الحرارة إلى ما جاورها . وقبل صنع الترموس كانت تستعمل أوانٍ صمّ المسام لحفظ الماء شتاء مثل الدورق الزجاجي أو الصيني — وفي الصيف تستعمل الأواني ذوات المسام مثل القلل فتبخر فيرشح الماء من مسامها ويتبخر على سطحها فيمتص الحرارة بعملية التبخر فيبرد الماء . ويساعد الانسان عملية التبخر هذه بوضع قطعة من القماش حول الاناء ووضعه في مكان مظل به نسيم خفيف ، فقطعة القماش بتبللها والنسيم يحركه يزيدان حركة التبخر . والزمزمية مغطاة بطبقة من القماش السميك يبلل لتفعل هذا الغرض في الصحراء .

• يمكننا بعد كل هذا الشرح أن نذكر شيئاً عن الحميات . وقبل أن نتكلم عنها يجب أن نميز بين ارتفاع الحرارة أو زيادتها بدون سبب مرضي ، وبين ارتفاعها وازديادها بسبب مرضي ، مكروبي أو غير مكروبي . يوجد لفظان متشابهان ولكنهما اصطلاحيًّا غير مترادفين فلفظ حرارة زائدة Hyperthermia معناه مجرد ارتفاع الحرارة لأي سبب كان . وتستعمل في الغالب في أحوال ارتفاع الحرارة من سبب غير مكروبي أو ما شابه المكروبات أو الفيروس . كأن يكون الارتفاع إثر امتصاص الدم المتكتل في الأنسجة عقب الصدمات وعقب الكسور ، أو من حقن اللبن أو حقن زيت الكبريت التي تسبب ارتفاعاً في الحرارة وتعطى عادة لعلاج بعض الأمراض مما لا داعي لاطالة الشرح فيه . وأما لفظ حمى Fever فقد أصبح لفظاً اصطلاحيًّا دالاً على ارتفاع الحرارة المسبب عن عدوى مكروبية أو ما شابهها ، موضعية كانت أو عمومية أو عن عدوى فيروس Virus وليست الحمى هي المرض بل هي ظاهرة أو علامة من أهم علامات المرض . فإذا قلنا التيفوس فهذا اسم المرض والحمى احد أعراضه وبحكم العادة نقول حمى التيفوس مع ان كلمة تيفوس كافية وذلك من بقايا الماضي حيث كان كل ارتفاع حرارة يسمى حمى وعندما ابتدأ الأطباء يميزون أنواع الحميات صاروا يذكرون لفظ حمى وبعدها لفظ نوعها كقولهم حمى التيفوس وحمى التيفود والحمى الراجعة والحمى القرمزية وهكذا . وهنالك أمراض حمية مهمة جدًّا جرى العرف على ذكرها بدون أن ترافقها لفظة حمى مثل الجدري والحصبة والطاعون .

• تعد الحمى كما قلنا علامة من علامات المرض وتتبع سيراً خاصًّا ومدة معلومة لكل مرض ، وتصحبها أعراض أخرى نتيجة تفاعل عام في البنية لمقاومة المرض . واتخذت درجة الحرارة مقياساً لشدة المرض وخفته ؛ ولو ان بعض الأعراض الأخرى قد تدلنا على خطورة المرض وعدم خطورته أكثر مما يدلنا عليه مجرد ارتفاع الحرارة — وهذه الأعراض

مثل قلة البول وسرعة ضربات القلب والحالة العصبية العامة للمريض ، بأن يكون متنبهاً أو مهتاجاً أو قلقاً أو متناوماً أو هاذياً إلى آخره .

• وكما قلنا عن حرارة الجسم الطبيعية نقول عن سير الحرارة وارتفاعها عند المريض. فإن بعض الأشخاص ترتفع حرارته بسهولة وغيره لا ترتفع بسهولة ، ويظهر ذلك عند استعمال الطعم الوقائي أو العلاجي فإنا نشاهد بعض الأفراد ترتفع حرارته ارتفاعاً كبيراً وبعضهم ترتفع قليلاً . وقد لاحظت في الأسرة الواحدة هذه الظاهرة إذ حدث أن عالجت اخوين من مرض حمي واحد ، ومن مصدر عدوى واحد . وكذلك إذا أعطيتهم حقناً من الطعم الوقائي بمقدار واحد ، فتكون الحرارة شديدة عند أحدهم عن الآخر مع تساوي الظروف والاحتمالات . وقد يعلل ذلك بعامل شخصي أو بأن وسائل تكييف الحرارة عند أحدهم أفضل منها عند الآخر . كل هذه وغيرها رءوس مسائل تستدعي البحث ومصر بلد به كثير من الأمراض خصوصاً المعدية والوبائية تستدعي انشاء معهد أبحاث خاص لها لفحصها وتعليمها ، إذ لا يكفي المجهود الشخصي الفردي في ذلك ، لأنه لا بد من تتابع البحث وأن لا يقف البحث بعد موت أحد الباحثين . وفي أمثال هذه المعاهد يكون البحث مستمرًا وتسهل طرقه ووسائله لمن يريد أن يشترك في بحث ما ، أو يعطي معلومات قيمة عمَّا شاهده ليقوم المعهد ببحثه . لأن البحث العلمي في هذا العصر أصبح عملاً تعاونيًا يشترك فيه جملة أشخاص كل فيما خصص له . وقد نوّهت عن فائدة هذه المعاهد في تقاريري ومحاضراتي وأشرت بضرورتها وضرورة انشائها ، وأتمنى أن لا يبعد اليوم الذي يوفق فيه أولو الأمر الى انشاء هذه المعاهد في مختلف الفروع حتى يؤدي مصر نصيباً وافراً من الانتاج العلمي الصحيح ، وتساهم في تقدم العلوم والمعارف في العالم فلا تبقى إلى الأبد تتزوّد بمعلوماتنا من غيرنا ولا تعطي شيئاً من عندنا . وفائدة هذه المعاهد التعليمية غنية عن البيان .

وقبل أن أنتقل الى نقطة أخرى أرجو أن يعرف الجميع أن كثيراً من أطبائنا قاموا ببحوث قيمة جليلة لا يمكن أن يقلل أحد من شأنها . ولا يزالون يقومون بالكثير منها فلهم الشكر . ولكن الأفيد والأهم ، هو استمرار البحث . والكفيل بذلك وجود المعاهد الخاصة .

• نعود إلى الحمى : عند ما تكون الحمى آخذة في الازدياد أي صاعدة من ٣٧ ½ الى ٣٨ الى ٣٩ ، وهكذا أيًا كان سببها نفسر ذلك بأن وسائل تصريفها من الجلد أو بالتنفس غير وافية — وعند ما تكون الحمى آخذة في الهبوط من ٣٩ الى ٣٨ الى ٣٧ ، يدل ذلك على أن

وسائل تصريفها من الجلد وافية في خفض الحرارة . وعند ما تكون الحرارة سائرة على وتيرة واحدة أي ٣٩ إلى ٤٠ مثلاً، فهذا دليل على ان وسائل انتاج الحمى ووسائل تصريفها متساوية ، أو بعبارة أخرى ان البنية تكيفت على هذه الحالة .

• وفي الحميات يضطرب مركز تنظيم الحرارة الذي ذكرناه، فتضطرب تبعاً لذلك وسائل تكييفها. والرأي السائد أن أغلب الاضطراب يحصل في وسائل تصريف الحرارة من البنية . إذ نشاهد أثناء الحمى قلة العرق وقلة البول وجفاف الجلد وسخونته ، ولذا يعد ظهور العرق علامة حسنة ، وكذا ازدياد البول ، إذ يُعدّان دليلين على أن البنية ابتدأت تتكيف على تصريف الحرارة الزائدة وعلى تصريف الفضلات المتزايدة في الجسم بسبب الحمى . وفي الحميات يفقد المريض شهية الطعام فلا يتناول غذاءً كافياً لعدم مقدرة جهازه الهضمي على تحمل مجهودات هضمه، فتعيش البنية على ما تحصل عليه من المواد البروتينية والدهنية والنشوية الحيوانية glycogen الموجودة في الجسم، كما يحصل في الصيام. ولذا يفقد المريض في الوزن أثناء الحميات المستمرة وأثناء الصيام — وتعد المواد الدهنية مواد مختزنة في الأنسجة الخلوية ، وكذا تعد مادة النشاء الحيواني glycogen مادة مختزنة في الكبد والعضلات، ولكن كميتها ضئيلة جداً بالنسبة للمواد الدهنية . وأما المواد الزلالية Proteines فهي المواد الداخلة في تركيب الخلية، وتعد المادة الحية والحيوية الأساسية في تركيب جسمنا . ويفقد المريض في الوزن بسبب نقص المواد الدهنية والمواد البروتينية ، كما يفقد من قوة بنيته وحيويته على وجه العموم . لهذا السبب تفتك الحميات فتكاً ذريعاً إذا ما أصابت شخصاً منهوك القوى من ضعف التغذية لفقره ، إذ ليست في جسمه مادة مدخرة ، كما تفتك بمن عندهم ضعف شيخوخي أو أمراض أخرى منهكة للقوى. قلنا ان البنية أثناء الحمى تستهلك المواد الزلالية الحيوية، ويظهر ذلك من تحليل البول، إذ نشاهد فيه ازدياد الفضلات التي تتصرف عادةً معه والتي مصدرها المواد الزلالية وهذه الفضلات مثل البولية الكرياتينية creatinin urea والبوليات والحامض البولي إذ تزيد زيادة واضحة عما تكون عليه في حالة الصحة — لأن في الحميات يزيد التبادل الغذائي الأساسي Basal Metabolism زيادة تقرب من ٥٠ في المئة عن الحد الطبيعي. ولا يمكن في الحميات أن يفسر ارتفاع الحرارة بكثرة الغذاء ولا باجهاد العضلات ، فان شهية المحموم تكون مفقودة، ولا يقدر على تناول الطعام ، إلا ما يصرح به الطبيب من الغذاء الخفيف المناسب لكل حالة ، ولأن المريض يكون ملازماً للفراش بارشاد الطبيب، وليست عضلاته في حالة إجهاد بسبب ارتفاع الحرارة، كما يحصل عند الأصحاء .

والسبب الذي تفسر به الحمى هو اضطراب وظيفة مركز تنظيم الحرارة بسبب المرض

وان هذا الاضطراب يؤثر على وسائل تصريف الحرارة أكثر مما يؤثر على وسائل توليدها

• يتحدثون عن حمى عصبية، والرأي السائد ان سبب الحمى نزلة حلقية خفيفة أو مرض آخر خفيف، لا تظهر له علامات وصادف ظهوره أثناء أحوال تؤدي الى الاشتباه بوجود حالة عصبية كما لاحظت ذلك ليلة الزفاف عند بعض السيدات . والامراض العصبية التي تحدث تغيرات عضوية في المجموع العصبي تحدث حمى إذا حصل تغير مرضي في مراكز تنظيم الحمى كما يحصل في أورام المخ واصاباته .

• وقد استفاد الطب العلاجي كثيراً من وسائل توليد الحرارة ووسائل تصريفها عند الايحاء، ومن المعلومات التي تعلمها من تأثير الحمى على البنية ومقاومة البنية للحمى ، فقلدها في علاجها وعدلها ونظمها وحتم الراحة التامة ليقلل مجهود العضلات فلا تتولد حرارة زائدة ولكي لا تضعف البنية . وحتم قلة التغذية لكي لا تجهد أعضاء الهضم وهي ضعيفة بسبب الحمى واكتفى بمواد غذائية سهلة الهضم . وقلد الطبيعة في تصريف الحمى فاستعان في علاجها بالمكمدات والتدليك بالكولونيا وغير ذلك .

مأثورات

سمع اعرابي يدعو الله وهو يقول :

هربت اليك نفسي يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب أحملها على ظهري ، لا أجد شافعاً اليك إلا معرفتي بأنك أكرم من قصد اليه المضطرون ، وأرأف فيما لديه الراغبون، يا من قلت التنزل بمعرفته، وأطلق الألسن بحمده وجعل ما افاض به من ذلك على خلقه ، كفاء لتأدية حقه ، لا تجعل قوى على عقلي سبيلا ، ولا الباطل على عملي دليلا .

وعن قيس بن رفاعة :

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة	يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم مني مجاهرة	كي لا ألام على نهي وانذار
فان عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا	ان سوف تفقون خزياً ظاهر العار
لترجمن أحاديثاً ملفقة	لهو اللئيم ولهو القادح الساري
من كان في نفسه عوجاء (١) يطلبها	عندي فكل له رهن بأصغار (٢)
أقيم عوجته ان كان ذا عوج	كما يقوم قدح النبعة البارى
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عندي وان لحراك بالأوتار

(١) العوجاء الخاصة (٢) الاصغار الجوز الى الصغراء يقصد (؟) لا يعتد به

العالم العربي

الحرية عقار أدواته

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيه أصوله ، فتحقق في نفس الرجل الحر ، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى أي أثر في الخارج . فاذا لم تتم الحرية في النفس ، انعدمت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً .

لما قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، تلقتها الأيدي المستنيرة من الشعب الفرنسوي، فرضي ثائرة، قضت على كل التقاليد القديمة التي قامت عليها النظامات الفرنسية منذ عهد لويس الرابع عشر . فالنظريات السياسية والاصول الاجتماعية والفوارق التي قام عليها مجلس الطبقات في فرنسا وهم النبلاء والشعب ورجال الكنيسة، تناولتها معاول الهدم التي عمل بها الشعب الفرنسي في أصول هذه الأشياء ، وفي كثير غيرها .

فلما أراد المستنيرون أن يقيموا البناء الجديد على قواعد مثالية ، وضعوه على أساس الحرية والاخاء والمساواة ، وعملوا على أن يقيموا صرح فرنسا الجديدة بل والعالم المتمدين على هذه المبادىء الثلاثة ، ومضوا يعملون على نشرها ، لا في القارة الأوربية وحدها ، بل أرادوا أن يجعلوها أساس الحياة السياسية والاجتماعية في غيرها من القارات . غير أن هذا الحلم لم يدم طويلا ، تقضت عليه عوامل كثيرة ، كان أعظمها شأناً انتصار فرنسا في الحروب التي تلت الثورة ، فذاق رجالها طعم القوة ، وأخذوا بنشوة النصر ، فنسوا تلك المبادىء وراحوا فريسة لفكرة التسلط imperialism : وكانت تلك النزعة أكبر ما عهد لحكم نابوليون الأول .

هذا سبب من الأسباب العارضة ، أي التي جاءت بالاضافة الى الثورة إسقاطاً وراء ما تملي القوة من صنوف الايحاء . غير أن هنالك سبباً آخر أعمق بكثير من هذا السبب ، سبب جعله تلك المبادىء التي اتخذت أساساً لبناء العالم الجديد، وظل كامناً في تضاعيفها حتى عثر عليها

لقد أراد هؤلاء المستنيرون، وهم بعد واقعون تحت تأثير حكم استبدادي طويل، وانتصار عاد كل مجده على الشعب الفرنسي وحده دون الملك المستبد، أن يوفقوا بين ثلاثة مبادىء، واحد منها طبيعي، واثنان خياليان. فالحرية هي المبدأ الطبيعي والإخاء والمساواة خياليان. لهذا عاشت الحرية في أرض فرنسا، ومات الاخاء ودفنت المساواة. عاشت الحرية فأسست في أرض فرنسا أربع جمهوريات على التتالي، وخلفت من ورائها تراثاً عبيداً لم ير الشعب فيه أثراً خلفه الاخاء، أو عرضاً ورثه إياه المساواة.

ذلك بأن التوفيق بين الجوهر والعرض، ليكون لكل منهما أثر صاحبه، أمرٌ مخالفٌ لطبيعة الاشياء منافٍ لأوليات التطور الذي تسوق فيه الطبيعة كل شيء في هذا الوجود. أراد هؤلاء المستنيرون أن يوفقوا بين جوهر ثابت في الطبع الانساني، وعرضين كلاهما خارج عن طبعه الرئيس، بل هو من خلق العقل وحده إذ ينزع الى مثاليات، ان لم يستطع أن يحققها في الواقع، فلا أقل من أن يسعد بها في أمانيه.

أقدم بهذه المقدمة لاثبت أن الحرية وحدها هي التي استطاعت أن تنقذ فرنسا في كل الادوار العصيبة التي مرّت على امبراطوريتها النابوليونية وعلى جمهورياتها الاربع، وهي التي ستنقذها في محنتها الاخيرة. ولقد استطاعت الحرية أن تخدم فرنسا وهي معنى محقق الدلالة في الخارج، بقيامه في نفس الشعب. هذا المعنى خدمه الأدب والفن والعلم والسياسة والصناعة، وعلى الجملة كل المرافق التي قامت عليها الحضارة الفرنسية خلال قرن ونصف قرن من الزمان. أنقذت الحرية فرنسا لأنها حق طبيعي يولد مع الانسان ولا يلحد معه، بل يتركه الانسان لمن هم بعده. حق لا تختلف فيه نظرة العلم ولا الفلسفة ولا الفن ولا الدين. ومن أجل أنه طبيعي، فهو ككل الأشياء التي تمنحها الحياة للحي العاقل، لا ينبغي أن يسلب أو يعتدى عليه أو يتنازل عنه بأي حال من الأحوال وبأية صورة من الصور. ولذا كان الاعتداء على الحرية بمثابة الاعتداء على الحياة ذاتها. لأن حياة الانسان لا يتحقق معناها الا إذا تحققت الحرية.

***

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيها أصوله فيتحقق في نفس الرجل الحر، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى اي أثر في الخارج. فاذا لم تقم الحرية في النفس أقامت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً، ورجع الانسان الى الدرجة التي لا يتحقق له فيها الا الحرية الحيوانية المعرفة كحرية التنقل أو الاغتذاء. وهو ضرب من الحرية يشاركه فيه كل صنوف الحيوان، فلا يكون للانسان الذي يرضى بذلك الضرب من الحرية أي

معنى انساني ، ولهذا ينبغي قطعاً أن نعتبر الشعوب التي ترضى بذلك الضرب من الحرية ، مرائم يرضيها أن تشبع شهواتها الحيوانية دون شهواتها العقلية والنفسية . واذاً فلا يشملها معنى الحرية التي نقصد الى الكلام فيها .

يشارك الانسان كل الاحياء في صفة الحياة . ولكنهُ يمتاز عليها بأنه « عاقل » . ومن طريق مشاركته للاحياء في صفة الحياة يتحقق له ذلك الضرب من الحرية التي هي للحيوان . اما صفة أنه عاقل فتحقق له ضرباً آخر من الحرية له صوره المختلفة . وهذه الصور هي التي ينبغي على كل فرد من أفراد العالم العربي باعتباره عالماً تجمع بين أهله أطماع وميول ومشارب ووراثات واحدة تقريباً ، أن يحققوها في أنفسهم ، حتى يسعدوا بآثارها الجليلة . ولا شك عندي في أن تحقيق معاني هذه الصور ، كائنٍ في ذاته ومن غير مجهود كبير ، أن يرفع عالم العرب إلى قمة الدنيا ، وإن كان تحقيقها في ذاته مجهوداً مهما عظم ، فانه لا يستكثر على شعوب لها ذلك الماضي العظيم .

لا نطلب تحقيق الحرية في النفس لأن الحرية حق طبيعي للانسان العاقل ولأنها تقرن دائماً إلى الحياة ذاتها . وإنما نطلب ذلك أيضاً ، لأن الحرية إذا تحققت في نفس الفرد ، استطاع بذلك أن يعمل على تحقيقها عند غيره من أفراد الجمعية . وهي فوق هذا وذاك واسطة مجدية فعالة في صب العقلية الفردية في قالب ينزع بها دائماً وفي كل الحالات إلى التسمح ، ووزن الأشياء بميزان ذي كفتين ، فلا يميل إلى إحداها كل الميل ، ولا يطفف في تقدير ماله وما عليه ، فيلزم دائماً حد الاعتدال ، فلا يجنح آونة إلى الافراط وأخرى إلى التفريط ، فتكون أواسط الاشياء ، وهي في الأخلاق الفاضلة حدّ السعادة وحدّ الخير ، كما يقول ارسطوطاليس ، سيد الاخلاقيين .

والحرية وتحقيقها في النفس شيء ، وقبول ما يترتب عليهما من الآثار شيء آخر . فاذا عجزت الحرية عن رياضة العقل والنفس على قبول الحقائق وأن آلمتها لاول صدمة ، كما قال أحد الفلاسفة ، قصرت الحرية الفردية عن أن يكون لها ذلك الأثر المطلوب الذي ننشده في حياة الجماعة ، وأصبحت الحرية كغاية فردية لا يتعدى أثرها حياة الفرد . وإنما تحقق الحرية رسالتها الخالدة ، إذا انعكست آثارها من الفرد إلى المجموع ، وكوّنت جواً تنطلق فيه العقول من كل التقاليد التي أسرتها وكبلت نزعاتها عن الانطلاق في آفاق الفكر البعيدة اللانهائية .

والحرية إذا تحققت في النفس وروض العقل على قبول محتملاتها ، فات بساحة إبداء كل رأي وتمحيص كل فكرة والناقشة في كل نزعة من النزعات الشتى التي تنعكس عن صور

التفكير ، وصور التفكير غير محدودة ولا نهائية . وأنت إذا بحثت في أسباب الشقاق الذي يعم العالم آثاره ، وصنوف البغض والكراهية والحسد ، تلك التي تقمع الانسانية وقمتها خلال كل العصور عن الانطلاق في آفاق العمل المجدي ، فمنعت بذلك قصور النفس عن قبول ما يترتب على تحقيق الحرية فيها من الآثار العقلية واخراجها إلى حيز العمل ، هي كل السبب فيما نرى ورأينا ، وفيما سوف نرى من انقلابات داوية ، ستظل الانسانية تدور من حولها في دائرة مجسة

كتب الفلاسفة والمصلحون ما كتبوا متلمسين خطى التقدم التي خطتها الانسانية منذ أقدم العصور ، وقال بعضهم إن الانسانية تنتظر عصراً ذهبياً تزهو فيه الحضارة . وقال البعض الآخر ان ذلك العصر قد مرَّ منذ آلاف السنين ، وإن الانسانية الآن تنحدر ، أو هي على الأقل واقفة تدور من حول تلك الدائرة النجسة . واعتمد الأولون على ما رأوا من تقدم مادي ، واستند الآخرون على ما رأوا في التاريخ من انتكاس كل مبدإ مثالي إلى نقيضه ، في كل محاولة طمحت من طريقها الجماعات في الخطو إلى الأمام . السبب في هذا كله أن الانسان لم يحقق الحرية في نفسه ، ولم يهيئ لها جواً عقلياً تبرز فيه آثارها المحققة في النفس .

من هنا يظهر لنا جلياً أن رياضة النفس على تحقيق الحرية وقبول آثار ذلك ، إنما هو أساس الاصلاح الاجتماعي برمته . لو أن هذا المبدأ كان محققاً لما سقطت الحضارة الانسانية تلك السقطات التي جرَّتها إلى الحروب الدينية والخلافات المذهبية التي لا طائل تحتها ، والتي كبلت أيديها وأرجلها تلك القيود التي صدت الجماعات عن التقاهم على أبسط الأشياء . أشياء قبلتها عقول الأفراد ونبذتها عقلية الجماعات ، تلك العقلية التي ظلت وستظل عهداً طويلاً مسرحاً للعلاب أنصار الدكتاتورية والطامعين في السلطان والعاملين على استعباد الأحرار ، كل هذا ليجعلوا الانسانية تدور من حول تلك الدائرة النجسة ، فلا تفلت الجماعات من أيديهم ، فتنطلق في آفاق الحرية الواسعة .

إذا اعتقدنا بأن الحرية حق طبيعي ، استطعنا أن نحقق معناها في أنفسنا ، وإذا حققنا معناها في النفس ، تسنى لنا أن نقبل ما يترتب عليها من الآثار . وأثرها الأول تحقيق حرية الأديان . فلكل انسان أن يتدين كما يشاء وأن يعبد الله بالطريقة التي يختارها . فلا اكراه في الدين . والدين طريقة اتصال بين الانسان وخالقه . فلكل فرد من الأفراد أن يختار تلك الطريق بمطلق حريته . وأثرها الثاني حرية التفكير . فالحرية الحقيقية تمنع الناس والحكومات وأصحاب السلطان من أن يعاقبوا فرداً على رأيه ، مهما كان مخالفاً لآرائهم ، ومهما كان فيه من مناهضة التقاليد . ولن تتحقق هذه الحرية إلا بأن يأمن كل انسان على حياته وماله وعيشه .

وذلك من واجب الجمعية المتمدينة أن تتكفل به . وأثرها الثالث حرية الفرد . فان قمع الفكر عن الاتصال بالجو القائم من حوله ، قمع للحرية ذاتها ، وتعطيل لمعنى الحرية في أبرز صورها .

أما إذا حقق العالم العربي هذه الحريات ، فانه ولا ريبة يترفع على قمة الدنيا ، ولا جدال في أن وحدة العالم العربي ينبغي أن تقوم على الحرية . لان اشتراك الرافق بين أجزاء هذا العالم لا تكون مناطاً للوحدة ، إذا نظرنا فيها نظرة ضيقة الحدود مقصورة على التبادل المادي . ان هذه الرافق ولا شبهة تكون موضعاً للنزاع والتفرقة أكثر منها سبباً للألفة ، إذا لم تقم من ورائها عقلية حرة تزن مصالح الشعوب العربية على أساس من التسمح ومغالبة الأهواء .

* * *

لقد نزعت الشعوب العربية الى الاخذ بمبدإ الديمقراطية في الحكم . وهو مبدأ له هفواته . ولكنه على كل حال أقل صور الحكم هفوات ومفاسد . هو الجد الممكن من الحكم الصالح يبغ اليه الانسان . ولكن كثيراً من هفوات هذه الصورة من الحكم ، ولا شك تنعدم إذا رضينا أنفسنا على الحرية بمعانيها التي أسلفنا القول فيها . فرجال الحكم قبل غيرهم ، ينبغي أن يكونوا رجالاً حققوا في أنفسهم معنى الحرية ، وراضوا عقولهم على قبول ما يترتب على ذلك من الآثار ، ونصبوا أنفسهم أمثلة حية ، فيقتدي بهم الناس . ينبغي أن يكونوا القدوة العليا ، فلا ينصرفوا إلى المعنى الأدنى ، معنى التحلل السياسي ، مقلعين عن الانصراف إلى المعنى الأسمى ، معنى الحرية .

ولقد قضى علينا مذهب الحكم الديمقراطي أن نوسع من مجال تلك الدائرة التي يخرج منها السياسيون ورجال الحكم ، وكلما اتسعت تلك الدائرة قلت المواهب العليا التي تتجه مطامعها الى الاصلاح الحقيقي من طريق الحكم . على انهُ من المستطاع القضاء على هذه النظرة إذا نحن نزعنا إلى الحرية وحققناها في أنفسنا ، وقبلنا آثارها المترتبة عليها . فان في ذلك الضمان الكلي لقيام حكم ديمقراطي يهيء الطريق إلى مستقبل تستقر فيه الجمعية العربية على قاعدة روحانية سامية ، والشرق مبعث الروحانيات .

في القرن التاسع عشر طغت على أوربا موجة من السياسة رجّت أساس الحضارة ، وبلغت من التأثير في النظام الاجتماعي مبلغاً أزعج المفكرين . قال اناتول بوليو[1] (١٨٨٥) :

« كلما اتسع المحيط الاجتماعي الذي ينشأ في نطاقه السياسيون وكبار رجال الدولة ، نزل

---

[1] Anatole Beaulieu (١٨٤٢-١٩١٢)

مستواهم العقلي . وهذا الانتكاس أبين في أخلاقهم ، منه في أية ناحية أخرى من صفاتهم . فزعت السياسة الى الفساد والتدهور ، حتى لوثت كل الأيدي التي انغمست فيها ، وكل الرجال الذين اعتمدوا عليها في الحصول على معاشهم . ولقد أصبحت المعارك السياسية من المرارة والوقاحة ، بحيث صدّت الطبائع النبيلة السقيمة عن التصدي للسياسة بعنفها ودسائسها . وقد أظهرت الطبقات المثقفة في أكثر من أمة ، ميلاً إلى الترفع عنها . والسياسة ولا شك تجارة ان أردت أن تنعم بها وتسعد في ظلها ، فيلزمني أن يكون لك من الذكاء والمعرفة ، أقل مما لك من الجرأة والقدرة على الدسّ . ولقد أصبحت السياسة في بعض الدول من أكثر من الحياة شيناً وقذارة . وما الأحزاب إلا نقابات للاستغلال ، فأضحت وسائلها ، أقل شعوراً بالخجل . كنت جالساً إلى المائدة ولورد غراي أوف فالدون من الضيوف ، وأثير سؤال في السياسة وهل هي مهنة شريفة ؟ فقال لورد غراي على الفور — « انها تجارة خسيسة » ونقل الأسقف كرايتون عن لورد برايت أنه قال — « لو علم الشعب أي صنف من الناس هم السياسيون ، إذن لطمّ من سبابه وأقصاهم أجمعين » . ونقل أنّ كرنت كافور قال — « أي ضرب من المجرمين نكون ، إذا نحن فعلنا بأنفسنا ، ما نفعل اليوم بإيطاليا » ؟

قبل هذا في عصر كان فيه للقوانين الدولية بعض الوزن ، وكان للأخلاق فيه بعض القيمة ، وكان الشعور بالمسئولية وبالخجل ، من العوامل التي لها بعض الأثر في سياسة الدول . أما وقد انحدر أهل الدنيا إلى ما رأينا في الحرب العظمى الأولى وفي هذه الحرب ، من الاستهانة بالحقوق العامة وبالحقوق الخاصة ، فلا شك في أن الاطمئنان الى السياسة في تحقيق ما تصبو اليه أمم سلبت حقوقها الطبيعية ، يكون شذوذاً لا تسوغه طبيعة الأشياء .

كل هذه الخبائث إنما تنمو في جوّ لا تتحقق فيه الحرية في أنفس الأفراد . ولقد عانى العالم كلهُ من آثارها الأمرّين ، وفقد من قواه ومن ثروته ومن جهوده ما لو بقي لنا بعضه لحقق لنا عيشاً أسعد وحياة أمتع وأرغد ، ولسمت به الانسانية ذروة الحضارة العليا . حضارة يتحقق فيها السلام والانصراف الى العمل المجدي . حضارة حرّة ، قوامها أمم حرّة .

هذا ما ينبغي أن نحققه لأنفسنا . ونعني « بأنفسنا » عالمنا العربي ، « حزام الدنيا » من حدود بحر الظلمات إلى تخوم الصين ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى شعاب افريقية الوسطى .

إذا حققنا ذلك ، حققنا معه حلم العظمة والسيادة داخل تخومنا ، حلم أن البلاد للعرب للعرب .

اسماعيل مظهر

لحظة الصفر

قصة عن بوريس جورباتوف

Boris Gorbatov

« لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رجفة عندي للصدر . هنا الحقد في صدري ، الحقد الصبيّ الذي لا ينطفئ . ان قلبي ينتقل . هذه معركتنا الى الموت . هناك أدهب »

أيها الرفيق ! لقد قرىء علينا الأمر الآن . في الفجر سنكون في المواقعة . سبع ساعات حتى الفجر .

كان الوقت ليلاً . وبعيداً فوق الرؤوس تلألأت الكواكب . خيم السكون . كان قصف المدافع قد سكن . وأغفى جاري بغفاءة هنيئة . وفي ركن من الأركان ، انبعث همس ما . هناك المراقب يسير الى أحدهم كلمات .

في الحياة قد ات من الصمت لها طابع عجيب ، ومن الممكن أن تُسْتَشعَر .

وها أنا ما سأذكر هذه الليلة — ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٤١ . سأذكر القمر وهو يتسلق على منحدرات « الدون » وقد بدت الجزم برامشة . كأنما أصابتها البُرْدَاء . سأذكر كيف أغفى زميلي ورائح في نوم عميق ، وعلى الربى وفوق الخنادق ومواقع قذف النار ، خيم سكوت رهيب . سكوت في أضاعيفه العاصفة . السكوت الذي يسبق المواقعة .

كنت مستلقياً في الخندق ، وقد أخفيت مشعلي الصغير بطرف ردائي المبلل لأكتب اليك هذا ..... كذلك كان الملايين من المحاربين مثلي منتشرين من محيط الجد الشمالي إلى البحر الأسود ، يستلقون كما أنا مستلقٍ ، وفي نفس هذه الليلة ، وعلى الأرض المرطوبة ، ينتظرون تنفس الصبح والهجوم ، يفكرون في الحياة وفي الموت ، وفي ما ينتظرهم من حظ .

أيها الرفيق ! ان كلاً منا يريد ان يعيش طويلاً . وأنا أريد أن أتبصر ، وأتنفس وأكون قديراً على الذي ، وأرى السماء من

فوق رأسي . غير أني لا أريد أن أعيش أي لون من ألوان العيش ، فلست ممن يهمهم أن يعيشوا وكفى — وأن يوجدوا وحسب .

في الليل الماضي زحف رجل الى خندقنا آتياً من « الضفة الأخرى » . لقد هرب من الفاشيين . قدم زاحفاً بائساً واهنين وذراعين انتزع عنهما الجلد وسالت الدماء . فلما رآنا ، نحن أهله وعشيرته ، طفق يبكي ، ومعصي يشد على أيديها ويهزهما ، وكأنه أراد أن يعانق كل من لاقاه . كان وجهه يختلج ، وشفتاه تهتزان ، فأعطيناه بعض الخبز والزبد والطماق . فلما فرغ من وجبته هدأ روعه وأخذ يقص علينا اشنع القصص عن الالمان . حدثنا عن السلب والتعذيب والسرقة . فلما سمعناه أخذ دمنا يغلي ، وقلوبنا تزداد حقداً .

رأيت ظهر الرجل . ثبتت عيناي فيه فلم تريا شيئاً آخر كأنما هما قد علقتا به . لقد كان منظره أبلغ من كل كلام .

كان قد مضى شهر ونصف شهر على هذا الرجل تحت سلطان الفاشيين ، فتقوّس ظهره كما لو كان فقاره قد كسر ، أو كأنه أجبر على أن يمشي منحنياً نحو الارض ، أما عضلات ظهره فكانت تتشنج وتتكمش ، كأنما هي تترقب توالي الضربات القاسية . كان منظره ينم عن أنه رجل صلبت ارادته ، أو أنه وقيق مستعبد .

صاح به أحدهم اعتدل . قوّم كتفيك وردهما الى الوراء ، أيها الرفيق . انك في عشيرتك .

رأيت ، كما لو كنت أرى في صفحة جلية واضحة ، ما هو مقسوم لي . حياة بظهر مكسور ، ثم الاسترقاق والعبودية .

أيها الرفيق ! خمس ساعات قد بقين ثم يتنفس الصبح . بعد خمس ساعات أكون في غمار المعركة . كلاّ ليس من أجل تلك الربوة التي أمامي سوف أحارب الفاشيين . كلاّ . ستكون الحرب لاغراض أعظم وأضخم . ستكون الحرب من أجل من سوف يكون التصرف في مصيري : هتلر أم أنا ؟

حتى هذه البرهة يتصرف كلانا — أنت وأنا — في مصير نفسه ويتسوّد عليه . ونحن إننا نختار نوع العمل الذي نعمل ، والصنعة التي نتعلمها ، والوظيفة التي نشغلها ، ونتزوّج من المرأة التي نحبها . أمة حرة في أرض حرة . إنما ننظر للمستقبل بشجاعة وبطولة . الملكة كلها أمّ لنا جميعاً . في كل بيت أصدقاء ورفقاء . وكل وظيفة من وظائف العمل محترمة مبجلة ، والعمل في ذاته بطولة ومجد . لقد علمت ان كل طن من القمح نخرجه من باطن الارض ، فيه الشرف والصيت والكفاء . وكل أردب من القمح يحصد ، يضاعف من ثروتك ، التي هي ثروة أسرتك .

ولكن ! لقد أتى الفاشيون . سيصبحون

المقدّرين لحظك ونصيبك في الحياة. سيحطمون يومك، ويسلبون غدك. سيتحكمون في حياتك وسكنك وأسرتك. سيطردونك من بيتك. نعم وسوف تطرد مقصوم الظهر، طاوياً تحت المطر، ملقى بك في الأوحال. نعم. قد يسمحون لك بأن تعيش. ذلك بأنهم في حاجة إلى دواب الحمل. سوف يستعبدونك. ولكنك ستكون عبداً سيئ الحظ مقوّس الظهر. ستتحصد أردب القمح. ولكنه سيذهب اليهم وتُسلّى متضوراً من الجوع. وستخرج الطن من الفحم. غير انهم سيستولون عليه صارخين: «أيها الخازر الروس: انكم لا تحسنون العمل». ستظل في أعينهم دائماً ذلك الروسيّ الحقير: حيوان من نوع أخسّ سيحملونك على أن تنسى لغتك ولغة آبائك. اللغة التي حلمت بها ورأيت فيها رؤاك. اللغة التي عبرت بها عن حبك لمن أحببت. سيجبرونك على أن تتكلم لغتهم، وسوف يزأون بك وأنت ترطن بلغة أجنبية بعيدة عنك.

الفاشيّ!!

سيطأ بقدمه أحلامك ويُثقل على آمالك انك قد أمّلت وحلمت بأن ابنك إذا كبر واستوحل فسيكون عالماً، أو مهندساً ذا خطر وقيمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعلماء من الروس! ألم يجمعوا علماءهم أنفسهم في قطعان أودعوها محلات الاعتقال؟ انهم لا يريدون إلاّ دواب عاملة من دواب الحمل. وسوف يساق ابنك تحت سلطان الفاشيين، ناسياً طفولته وفتوته ومستقبله.

كثر ما دلّلت ابنتك الحبيبة وأحطتها بعنايتك. كم مرة حنوت عليها وأشفقت بها واحتميت فوقها أنت وزوجك وهي في غفوتها الملائكية، وحلمتما بسعادتها. ولكن الفاشيين لا يرغبون في بنات روسيات نظيفات جميلات. يردنهنّ في بيوت الدعارة ليكنّ متعة لذوي اللعصان السمر من أبنائهم. أترضى بأن تكون موضع نظرك ومحل أملك... ابنتك «مارونكا»، حمامتك المحبوبة..... بغيّاً.

أنت تفخر بزوجك. كل من في القرية يحبها ويحترمها... أوكسانا الجميلة. كلنا في حسدك عليها سواء. ولكن في العبودية لا يكون للنساء اختيار. انهنّ يكبرن قبل الأوان. ان زوجتك «أوكسانا» ستصبح عجوزاً شمطاء مقوّسة الظهر.

أنت تبجل والديك. ألم يكونا السبب في انك وجدت وربيت ونشأت؟ وأوصلك هذه! ألم تداعبك على أن تهيئ لها حياة سعيدة هنية هادئة، وشيخوخة شريفة محترمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعجائز الروس. فالمعمّرون لا يعملون. إذاً فيجب أن يموتوا جوعاً، ولهذا فسوف لا يعطون والدتك شيئاً من القوت الذي تحصله بكد ساعدك.

قد يتفق أن تحتمل كل هذا ، فلا تموت . غير أنك ستصبح حاملاً متواكلاً أعيش عيشاً كله عماء وجوع وحزن .

اني لأرفض أن أعيش هذا العيش . كلاً . لن أحيا هذه الحياة . لأجدر بي أن أموت من أن أوجد هذا الوجود . أفضل عندي حربة في صدري ، من قيد في عنقي . كلاً أخلق بي أن أموت شجاعاً ولا أعيش عبداً ذليلاً أو جباناً حقيراً !

أيها الرفيق ! ثلاث ساعات بقين قبل أن ينتفس الصبح . ان مصيري في يدي . مصيري كائن في سنان حربتي المرهف . مصيري ومصير أسرتي ووطني وقومي .

أيها الرفيق ! ساعتان قبل أن ينتفس الصبح .

تطلعت خلال الظلام بعيني رجل شعر باقتراب الوقعة وترقب الموت ، فنظر بعيداً واخترق الحجب . ومن خلال ليالٍ طوال وأيام أطول ، بل ومن خلال شهور أنظر أمامي ، ومن فوق جبال من الأحزان والآلام ، فأرى النصر ماثلاً . سوف ننالـه . سنخوض اليه أنهاراً من الدماء ممزوجة بالحزن والأسى والعذاب . سنخوض اليه مآسي الحرب ودواهيها . ولكننا سنصل إلى النصر ، إلى النصر الحاسم الفاصل على العدو . لقد قاسينا من أجله واحتملنا كثيراً . سوف نفوز .

تذكر أيامنا قبل الحرب . لقد ظلّ حيلنا هذا وسيف الحرب مصلت من فوق رأسه . عشنا وعملنا ودللنا زوجاتنا وربينا أولادنا . ولكن لا يجب أن ننسى أن كل هذا انما كان من أجل دقيقة واحدة . هنالك في الناحية الأخرى من تخومنا يجثم وحش مفترس يستعد لمضغنا ، فيشحذ أظافره ويحدّ أنيابه الدامية . لقد كانت الحرب جارنا القريب . كانت أنفاس الأفعى المجلجلة تسمم حياتنا وجهادنا ، بل وحبنا نفسه . نحن فزعين . وانتظرنا :

هاجنا الوحش . بات في أرضنا . تدور الآن أقسى المعارك وأدمى الوقائع . حرب إلى الموت . والتفاهم مستحيل فلا اختيار إذن . فلنطعن ونقوّض كل قائم لنقضي مرة واحدة وإلى الأبد ، على الوحش الهتلري . وحتى يثوى آخر فاشيّ في قبره العميق ، لن ينكشف عن صدرنا ذلك الكابوس الذي يخنقنا . ثم هدوء شامل . هدوء لا يتخلله جلبة . هدوء النصر ، سيظلل رؤوسنا . وهنالك سوف نسمع ، أيها الرفيق ، لا حفيف أشجار الغابة الرحبة الجميلة وحده ، بل سوف نسمع العالم يرسل أنفاس الراحة ، ويتم هواء الأمل . سوف نسمع أنفاس الانسانية تتردد هادئة وصافية .

سوف تدخل المدن والقرى المحرّرة رعب ما يكون الشامل — سكون الموت

شعلها الفرح والسرور . هنالك سيرتفع الدخان مرة أخرى من مداخن المعامل الشيدة — هنالك الحياة ، سوف تدب مرة أخرى . حياة سعيدة كاملة أيها الرفيق حياة عظيمة ثمينة في دنيا حرة . حياة تسودها أخوة الشعوب .

من أجل تلك الحياة يهون الموت . إنه لن يكون موتاً . إنما هو الخلود .

***

أخذ الصبح يتنفس أيها الرفيق . صبح خجول أسمر الإهاب . بدأت الأشباح تتبين لم تلح لنا الحياة من قبل في ثوب أبهج . انظر كيف تتسم هضاب الدون أمامنا . انظر كيف تلمع التلال الطباشيرية تحت أول شعاع يشق الأفق ، كأنها جبال من فضة .

نعم . أن للحياة قيمة ما . ولكن قيمتها في أن نرى النصر كيف ينال ، إذ ذاك أضم رأس ابنتي الصغيرة إلى صدري بين تنايا معطفي الكبير ، راضياً وخلي البال . إني إنما أعيش من أجل أغراض كثيرة . ولذا فأنا ذاهب الآن إلى المعركة لأحارب لأجل الحياة . فاذهب من أجل حياة طيبة أيها الرفيق ، ولن أعيش لأكون عبداً . فاذهب من أجل سعادة أولادي . من أجل سعادة وطني ، أمي الكبرى . من أجل سعادتي . إني أحب الحياة . وسوف لا أبددها . اني أحب الحياة . ولكنني لا أرهب الموت . اني أفهم من الحياة أن أعيش شجاعاً ، وأموت شجاعاً

الفجر ! !

بدأت المدافع الثقيلة تجلجل . وستار النار سوف ينتشر . وبعد برهة تذهب في الثمرات .

أيها الرفيق ! من فرق هضاب « الدون » التي هي هضابي ، أوصلت الشمس أشعتها الذهبية . شمس المعركة .

واني لأقسم أيها الرفيق بحق جلالها اني سوف لا أتراجع . فاذا أصابني مكروه فسوف أموت في الصفوف . واذا أحيط بي فسوف لا أسلم نفسي . لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رحمة عندي للعدو . هذا الحقد في صدري ، الحقد العميق ، الناري الأنفاس . ان قلبي ليشتعل . هذه معركتنا ل الموت »

هنالك . أذهب

الضمان الاجتماعي

مشروع بيفردج من الحيثيه

التاريخية والاجتماعية

ما هو الضمان الاجتماعي؟

الضمان الاجتماعي عند السير وليم بيفردج هو النظام الذي يتحقق للجمعية البشرية بالقضاء على خمسة عمالقة هي : الخصاصة أي الحاجة ، والمرض ، والجهل ، والقذارة ، والتعطل أي الكسل . وعلى هذا فلا يتحقق الضمان الاجتماعي ما دامت هذه العمالقة تسيطر على الحياة الانسانية .

لما نشبت الحرب الأخيرة واشتبكت فيها أكثر شعوب أوربا ، وقضت النازية والفاشية ، إلى حين ، على حضارة كثير من الأمم الصغيرة التي كانت تعيش في بحبوحة من العيش في ظل نظام ديمقراطي ، وساد الفقر جماعات كانت تعد من أغنى جماعات الانسان وأقدرها على رفع مستوى الحياة ، وانتشرت الأمراض الفتاكة ، وتعطلت دور العلم عن أداء رسالتها ، شعر سوآس الانجليز ، وكان لهم أكبر الحق في أن يشعروا بحرارة ، ان العالم مقبل على انقلاب خطير سوف يتناول أساس نظامه الاقتصادي الذي تقوم عليه كل مرافق المجتمع ، وأن الضمانات التي كفلها هذا النظام في الماضي ، لن تصلح لكفالة نظام اجتماعي ذي استقرار في المستقبل ، أي في العصر الذي يلي انتهاء الحرب وعودة السلام . لهذا عهدت الحكومة البريطانية في شهر يونية سنة ١٩٤١ إلى سير وليم بيفردج أن يدلي برأيه في علاج الحالة الاجتماعية التي سوف تترتب على الحرب الحالية ، فوضع تقريره المعروف ، الذي أصبح اسم بيفردج علماً عليه .

لم تكن هذه الحرب السبب المباشر لقيام هذا الشعور عند سوآس الانجليز ، وانما كانت حافزاً لهم على التفكير بجد في حالات مجتمعهم ، كانوا يشعرون بأنها كانت ، ولكن معالجتها لم تكن عاجلة . وهم بذلك انما يكررون ما قام به المصريون من قبلهم ،

يكرّرون الخطأ الذي وقع فيه لويس السادس عشر وحكومته في فرنسا ، والخطأ الذي وقعت فيه الحكومة القيصرية الروسية في أثناء الحرب الماضية ، فأدّى إلى هزّات عنيفة وثورات ، كان من الممكن أن توفر على الانسانية ما حملتها من فوضى ومن دماء ، لو أن ساسة الأمم قد بصروا بشيء من حقائق التطور القائمة من حولهم ، ونظروا لابد من أن يكون . ولعلّ ساسة الانجليز في هذا العصر قد انتفعوا بتجارب الذين سبقهم من السياسيين في مختلف الأمم ، فبادروا إلى وضع الشيء في موضعه ، فعهدوا ببحث أدواء المجتمع إلى رجل لم تسيطر عليه السياسة ، ولم تؤثّر في عقله مماحكاتها ، فشقّ الطريق القويم إلى الغرض الأسمى ، وبحث المشكلات القائمة بعقل غير مدخول بأي اعتبار المهمّ إلاّ اعتبار ان الجمعية الانسانية تتطوّر ، وان نظرتها في الحياة تتسامى ، وان من حق كل فرد من أفراد الرعية أن يتخلص من حماقات الماضي التي سببتها سياسة أطلقت على الجماعات تلك الحماقة الخسة ، وأوردتها بالتصرف في مصاير الأمم .

لا أبالغ إذا قلت إنّ هذه هي المرة الاولى ، لا في انجلترا وحدها ، بل وفي جميع بقاع الأرض ، تنازل فيها السياسيون من عليائهم ، وأخضعوا كبرياءهم للحقائق . ذلك بمعنى أن الحكومة الانجليزية لم تعهد بهذا البحث إلى السياسيين المحترفين ، بل عهدت به إلى رجل اجتماعي درس الاجتماع من نواحيه القصية . درسه من حيث تطوره وانتصاره وانتاجه وقدرته على العمل ، فخرج من ذلك بآراء أصبحت دستور الاصلاح الاجتماعي في جميع بلاد العالم . دستور ضرب بمعول باتر في أصول الكثير من النظامات التي خيل للسياسيين منذ عهد قريب انها أبدية ، وان الجمعية الانسانية قد وصلت في ظلالها إلى مأمن من المدنية لن يتبدل .

كان من خطإ السياسيين في الماضي عقوقهم للعلم ، فاستأثروا بالرأي في كل ما يتعلق بالأمم من الأشياء التي يحسنونها والتي لا يحسنونها ، وتاريخ القرن التاسع عشر ، ناهيك بما قبله ، وتلك العقود التي سلخناها من القرن العشرين ، أكبر شاهد على هذا العقوق . كبر عليهم أن يستعينوا بالعلم والخبرة العلمية والنظر النافذ في حالات التطور التي تصيب الجمعيات في معالجة المشكلات المدنية ، فطاحوا بالكثير من مصالح الأمم ، وأوقعوا الشعوب في مآزق عصرتهم عصراً ، وركستهم ركلاً بغير لين . وقد تناوبت هذه الحالات على شعوب الأرض المتمدينة المرة بعد المرة ، حتى ساد الناس شعور بالقلق والامتعاض والحاجة إلى الاصلاح الواجب ، وأقيم جو المدنية بشعور عميق بأن عصراً من عصور المدنية قد آن اختتامه ، وأن الانسان يستقبل عصراً جديداً .

إن الحكمة التي أبداها سوماس الانجليز في أن يعهدوا ببحث أسباب ذلك القلق الاجتماعي إلى رجل اجتماعي خبير ، هي نفس الحكمة التي ينبغي أن تملي على كل الحكومات أن تعهد ببحث مختلف قضايا الاجتماع الى الذين يحسون بحقها بروح الحرية والاستقلال . ولو أن السياسيين قد شعروا بأن سيطرتهم على كل مرافق الأمم لمجرد أنهم سياسيين ذوي سلطان ، لا تستوي ولفقدان الحقيقة التي لا يمكن بدونها أن يكون اصلاح ثابت ، إذن لمضت الانسانية تضرب في سبيل التقدم بقدم أثبت وخطى أوسع

نشكو في بلادنا هذه من الفقر ومن الجهل . فهل عهدنا بعلاج ذلك إلى الأيدي التي تحسن علاج الفقر والجهل ؟ ونشكو من المرض ومن التعطل ! ثم ماذا . ينبغي على رجال الحكم عندنا أن يقتدوا بما فعل الانجليز ، فلقد كانوا في ما فعلوا قدوة حسنة . وكل البلاد تشكو مما تشكو منه ، وربما كانت شكوى غيرنا أبلغ من شكوانا وبلواهم أعظم من بلوانا . ولكن المخرج من ذلك في أيدينا وأيديهم . ذلك بأن يعهد في بحث هذه المعضلات الى من ينظرون فيها نظراً حراً مستقلا بعيداً عما تملي السياسات على اختلاف نواحيها وعلى متباين نزعاتها . ينبغي أن يعهد بها الى رجال تحرروا من الاغراض ومن الشروات ، ونشدوا الخير العام وحده لا شريك له .

ان الأغراض التي يرمي اليها الضمان الاجتماعي هي بذاتها الأغراض التي نشدها الانسان من أقدم العصور . هي المبادىء التي حاول أن يطبقها منذ إن كانت له مدنية . وما تلك الجهود التي بذلها وتلك المتاعب التي أنفقها في سبيل الحضارة سوى صور تشكلت فيها نزعته نحو الكمال الذي . نزعته تلك هي التي شيدت معابد الكلدان ومصر وهي التي أقامت مدارس أثينا والاسكندرية وجامعات أوربة ، وهي التي حفزته الى النهضة في القرون الوسطى ، وهي التي تدفعه الآن دفعاً نحو خطوة أخرى تدنيه من الكمال المنشود . غير أن مختلف تلك الجهود ، إن كانت قد أصلحت به إلى الطريق السوي ، فان خطراتها كانت وئيدة بطيئة لكثرة ما انتابها من أضارب النزعات والميول وتحكم الشهوات . ولعلنا لا نخطىء إذ قلنا إن كل خطوة خطاها الانسان نحو ذلك الهدف ، تبعها انتكاس أودى بها في أكثر الظروف . ذلك بأن علم الانسان لم يكن قد شمل بعد مرافقه الاجتماعية ولم يكن قد تفاعل في البحث عن الأسباب التي تؤثر في مصير الجماعة ، فشى الانسان في طريق مظلم معتم ، ومضى يتخبط متبعاً وحي كل هاتف يهتف به ، متلهفاً إلى ما يخيل إليه أنه يدنيه من مثالياته التي نشدها .

إن روح الانسانية ظلت في خلال العصور تنشد الكمال ، وكل العصور الاجتماعية التي توالت على البشر ، ما هي الا ثمرة تلك الروح المشبوبة القوية المتوثبة . روح سيالها النفس

والعقل ، وغريزة التطلع الى ما هو أسمى . ولكن الانتكاس كان دائماً نصيب كل جهد انصرفت فيه تلك الروح . لقد بذلت الانسانية ما بذلت ، وأنفقت من تمار المال والروح ما أنفقت ، ولكنها ارتدت دائماً الى حيث بدأت . كان السبب في هذا أن العهالة الخسة قد سيطرت على المجتمع ، فلم تترك له مفلتاً من مخالبها القاتلة .

***

على الرغم مما تتطلبه هذه الحرب الضروس من مهام العمل واليقظة والاستمرار ، فان سياسيي الانجليز قد بذلوا أقصى الجهد في سبيل تنفيذ ما أوصى به عالمهم ، فأدّوا بذلك للعالم خدمة أخرى ، إذ كانوا أعظم قدوة وأسمى مثل ضرب للناس في هذا العصر . نعم استطاعوا أن يقضوا على الجهل ، فنفذوا بموافقة مجلسهم النيابي موافقة بالاجماع ، برنامجاً للتعليم يقضي على الجهل ، إذ جعلوا التعليم من نصيب الأولاد والفتيات عامة ومن نصيب كل الطبقات . وأدخلوا ذلك النظام في طور التنفيذ الفعلي . بل لقد قرأت لأحدهم قوله : ان تنفيذ هذا البرنامج التعليمي من أبهر الانتصارات التي ناطها الانجليز في هذه الحرب .

قضى الانجليز بذلك على العملاق الأول : الجهل ، وانصرفوا بعد ذلك إلى مغالبة العملاق الثاني : التعطل أو الكسل ، فعمدوا إلى نظام يضمن لكل انسان عملاً منتجاً ، وجعلوا انتاج الحاجات التي تسد غرض الحياة في البلاد أول همهم . ذلك بأن الأمة ما دامت تعمل في مجموعها ، استطاعت بذلك أن تقضي على الخصاصة وعلى الحاجة ، وتتصرف من هذه السبيل إلى العمر الذي يكون في ذمته خدمة اجتماعية ذات أثر ثابت في حياة الجماعة . ولم يغفل الانجليز عن العملاق الثالث : المرض ، فقد أخذت الحكومة تنفذ برنامجاً صحياً يشمل جميع أفراد الأمة على اختلاف طبقاتها . وما فعلوا ذلك إلا ليكون الاصلاح الصحي مقدمة للقضاء على العملاق الرابع وهو الحاجة أو الخصاصة ، فان الاصلاح الصحي ، يقضي بوضع نظام للتأمين عند التقاعد عن العمل . فمن الواجب أن يقوم هذا النظام على ، مقتضى المبادئ التي وضعت للضمان الصحي .

العملاق الرابع : الحاجة أو الخصاصة ، هو الآن في طريقه إلى الموت ، في صورة مرسوم بقانون لضمانه كتاب أبيض سيعرض على مجلس العموم . ولقد قدم ذلك المشروع كما وضعه بيفردج ، ما عدا بعض تنقيحات رأى المحصون إلى ما أوصى به ذلك العالم المصلح ، وأساسه إدخال نظام التأمين القومي الجبري لكل طبقات الأمة ، بحيث يكون ذلك من حق كل فرد من الهد إلى اللحد ، وأن يكون التأمين شاملا ، بحيث يتناول كل مرافق الحياة الفردية

سيقوم هذا المشروع على أساس التأمين على التعطل لكل رجل وامرأة ، ولكل رجل مع زوجة لها كسب ، ولكل رجل مع زوجة لا كسب لها ، ولكل امرأة متزوجة ذات كسب ، ثم مخصصات لمن يعولون . وكذلك سيكون هناك تأمين ضد المرض والتقاعد ، ثم مخصصات للأمومة والموت ، وللأرامل والأيتام وللتعليم الصناعي والمهني ، عند ما يكون الفرد متعطلاً عن العمل . وينص هذا المشروع على أن الحكومة تقوم بدفع مخصصات للأسر وتنفق على الأولاد تعليماً وتغذية ، وتوزع اللبن على الأطفال المحتاجين اليه ، وتؤمن العامل عما يحدث له من الاصابات أثناء العمل ، وتكفل له حياة مستقلة شريفة إذا تقاعد بسبب الاصابة .

وقد تبلغ نفقات التأمين الاجتماعي والمساعدة القومية ومخصصات الأسر والخدمة الصحية ٦٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ماركاً من الجنيهات الانجليزية في السنة الأولى ، وسترتفع إلى ٨٣١٫٠٠٠٫٠٠٠ بعد ثلاثين سنة . وستدفع الخزانة من هذه المبالغ ٣٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ في السنة الأولى ثم تتدرج حتى تصير ٥٥٧٫٠٠٠٫٠٠٠ بعد ثلاثين سنة .

هذا طرف ضئيل مما يتضمن مشروع بفردج للضمان الاجتماعي . ولكنه كاف على كل حال ، ليظهرنا على الروح التي بعثته ، وإلى الحالات التي أدت اليه .

***

لماذا تقع الانقلابات الاجتماعية ؟ تقع الانقلابات الاجتماعية إذا تطورت الجماعات ووقفت النظامات العتيقة تحول دون خطى التطور أن تنبعث في طريقها المحتوم . وإذاً يكون كبح الانقلابات الاجتماعية هو بالعمل على مسايرة تلك الخطى التي تتطور فيها الجماعات وتتكون عنها فكرة في ضمائر الأمم ، بحيث تعالج بذلك العمل حالات ، هي التي تدفع إلى الانقلاب .

نظر فلاسفة الاجتماع الى حالات الانقلاب نظرتين مختلفتين : قال الأولون ان كل انقلاب خطأ : وقال الآخرون ان كل انقلاب صواب . نظرتان مختلفتان . بل هما تتبصان لا يلتقيان . ولكن الراقم يثبت أن كلاً من النظرتين لها في العقل ما يبررها . فالذين يقولون بأن كل انقلاب خطأ ، انما يحكمون بذلك على اعتقاد ان الانقلاب ليس مضمون العاقبة دائماً ، وقد يتولاه الانتكاس فيرتد الى عكس ما أريد به . هذا فضلاً عما يتطلب من التضحيات ، وما يسبب من الآلام . والذين يقولون بأن كل انقلاب صواب انما يحكمون بذلك على اعتقاد انه

ما من سبيل الى الافراج عن الرغبات المكبوتة بالقوة والوصول الى الاصلاح المنشود الاّ بتحطيم كل ما يقف في سبيل ذلك من العقبات . وكما ان للنظريتين ما يبرّرهما عقلاً ، فان لهما الى جانب ذلك فائدة أخرى ، هي ان ثبت من طريقهما أن التطور التدريجي قد يقضي على كل نزعة الى الانقلاب اذا أحسن القيام عليه ، وعهد بسياسة الأمم الاجتماعية الى الذين في مستطاعهم ان يدركوا ما تحتاج اليه حاجات الناس من وجوه الاصلاح .

أما علاج حالات مجتمع كادت تصيبه فورة الانقلاب ، فسبيلها النظر في حقيقة بيفردج الحكمة : هل هي آخذة بخناقه ؟ هل هي تهد من كيانه وتكبح من رغباته وتشوّقه الى حالات أسمى وأنجح في الحياة ؟ لقد أوضح العلاّمة بيفردج الطريق ورسم النهج وأنار السبيل .

إن العالم في مخاض ، أما ما ستلد الأيام ، فذلك ما نكاد نحكم بأنه سيكون خطوة كبيرة إلى الأمام . خطوة تخلف العالم الاجتماعي أكثر استقراراً وأمناً ، إذا تولته الأيدي التي تحسن القيام عليه .

حديث ذو شجون

حدث أبو بكر بن دريد الازدي ، قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : رأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تصوت بقول وهي تقول :

يا من يذلك زهى الدهر	قد كان فيك تطاول الأمر
وتحدثا فتان وما لهم خبر	كذبوا وربك ما لهم عذر
يا قبر سيدنا الجواد سماحة	صلى الاله عليك يا قبر
ما ضر قبراً فيه جودك ساكن	أن لا يزر مزنه المطر
لو من سخاء جودك في الثرى	وليورقن بقربك الصخر
واذا تحدثت تصدعت قرة	منك الجبال وخافك الطير
واذا وقفت بأنت منتبه	واذا انحنيت فوجهك البدر
والله لو لك لا أجمع حمداً	إلا يقطر ، انني الوبر

قال : فاعجبت من لاستها على أمرها ، فاذا هي بدوية .

الأمالي ص ٤١ : ١ ط أمية

الدبلوماسية البابوية

في محيط السياسة الاوربية

لصلاح الدين الشريف

تطلع علينا أنباء البرقيات الخارجية الحين بعد الحين ، بألوان من السعي الدبلوماسي السلمي يصبغ نشاط « الفاتيكان » في هذه المرحلة التي يجوزها العالم ويرسم لنا في غمرة الاحداث الدولية التي تتعاور الآن مصاير الامم ، صوراً حية تعكس للقادة العالميين حقيقة المتجه الدبلوماسي الذي تنحوه اليوم سياسة « الفاتيكان » في معترك العلاقات الدولية المتشابكة ، كما تكاد تفصح عن مدى ما تستطيع أن تؤديه الدبلوماسية البابوية للعالم كله من سلام وتعاون وإخاء ، بعد سنوات شداد من العراك والدمار والفوضى .

والحق ان البابوية لعبت دوراً تاريخيًّا خطيراً في سياسة العالم من قبل ، اذ كان لبابوات روما اليد الطولى في خوض معركة لاهبة من معارك الكفاح الرهيب بغية التفرد بالسلطان الزمني ، له سلطانهم الديني . وكان من المحتوم أن يشغل هذا الكفاح من العصور الوسطى حقبة من الزمن ، حفلت بأحداثها وظروفها ، إذ نازعت فيها البابوية ملوك أوربا وأقيالها ، واشتدت في مدافعتهم عن رغبة الاستئثار وحدهم بالسيطرة على مصاير أوطانهم السياسية وممارسة سلطانهم الزمني كاملاً . وقد تجلى دهاء السياسة البابوية في مناسبات عدة ، كما تبدت روعة أساليبها في حرصها الشديد على الامتساك بعروة السلطان الزمني طيلة فترة الكفاح بينها وبين الأمبراطورية ، وعرضت لنا صفحات التاريخ الأوروبي صوراً باهرة لاعلام السياسة الزمنية من دهاة البابوية ودهاقينها المجربين العباقرة .

ولم تهدأ ثائرة هذا النزاع العاصف بين الكنيسة والدولة ، إلا بعد أن أخذ ملوك أوربا وأقيالها يدأبون في توطيد سلطانهم الزمني متوسلين بالنظريات المبتدعة تارة [1]

(١) أكتفي الحق الإلهي الذي تقضي بأن الملك أو الامبراطور يستمد سلطته وحكمه شيئاً من الله ، فهو غير مسئول الا أمام الله وحده .

وبسياسة البطش تارةً أخرى . وظلّ العامل الديني الذي اصطبغت به الدعوة البابوية في دفاعها عن مبدئها في السياسة الزمنية ، محافظاً على بقية من نفوذه وفرته في أذهان الغربيين حتى مطلع القرن الثامن عشر ، عصر الاستنارة في أوربة ، فشاعت فلسفة الشك التي تناولت قيم الحياة وأقيسة الحضارة بألوان من التجريح والنقد ، استندت فيها الى فقه دعاة الاصلاح الديني من ناحية ، وإلى كتابات فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وعلى رأسهم ڤولتير من ناحية أخرى .

وما استتمّ القرن الثامن عشر دورته ، وطالعت العالم المتمدين طلائع الثورة الفرنسية الكبيرى ، حتى تقرر في الواقع ، بعد أن تقرر في الأذهان ، مبدأ الفصل بين نفوذ الكنيسة الديني والنفوذ السياسي للدولة . وذاعت من ثمّ نظرية سياسة جديدة لبابا تقرير المبدأ المسيحي القديم «ما لله لله وما لقيصر لقيصر» أي أن الحكم للدولة والدين للكنيسة Cujus regio ejus relegio ولا بدّ ، تبعاً لهذا المبدأ ، من تحديد النفوذ بينهما [1] .

كانت فلسفة الثورة الفرنسية ستار أسفل على ما كان باقياً للكنيسة وفتئذٍ من آثار السلطان الزمني ، ولم يطل الأمر بالكنيسة حتى فقدت إبان الثورة مقاطعاتها وممتلكاتها جميعاً ، بعد مصادرتها وإلحاقها بالدولة التي اعتنقت « دين العقل » وقدّست مبتدعه « روبسبير » داعية الثورة الأكبر !

وتولت فرنسا الثائرة من يومئذٍ مهمة الانفاق على الشعائر الدينية من خزينة الدولة ، وفي حدود ما ترصده لها من مواردها العامة ، فكانت أنصبة محدودة وحصصاً متواضعة ، لا تكاد تفي بما يسد حاجة هذه الشعائر من وجوه الانفاق .

ولم يكن عجباً أن يصبح مرفق الدين في المجتمع الثوري ضئيل الحظ من العناية الحكومية بعد ما كان له من سلطان زمني باذخ وعنفوان روحي قديم . وهكذا طاحت فلسفة القرن الثامن عشر الاجتماعية على ما بقي من حرمات للمراسم والتقاليد ، وعصفت نزعة الالحاد برجال الثورة والقائمين على إهاب مبادئها اللادينية المتطرّفة في صدور الجماهير .

وكان « الفاتيكان » في ذلك الوقت يلوذ بصمته التقليدي الذي يرتد اليه في كل مرة يفلت من يده زمام الأمور الكنسية التابعة لمذهبه الرسمي ، وظلّ يرقب عن كثب أحداث تلك الثورة التي أتاحت لعهد الارهاب لتخلفه حكومة « الديركتوار » التي مهدت بدورها

(١) Paleologue. Un Grand Tournant de la Politique Mondiale. P. 40.

لظهور نابليون الأول، ليسيطر بحروبه الظافرة عبر القارة، على أقدار البابا ومصاير شعوبها فترة غير قصيرة من الزمان.

وأوحى إلى نابليون دهاؤه بأن الوضع الذي رسمته الثورة للمجتمع الفرنسي، بالنسبة لعلاقاته الدينية مع البابا، لا يتفق وما يجول في خاطره من آمال جسام يتطلع إلى تحقيقها وإلباسها ثوب الحقائق السافرة، وأن لا غنية له عن كسب العطف البابوي، فاعتزم من فوره — وهو الطامح إلى تاج الأمبراطورية — أن يعيد إلى فرنسا، الابنة البارة للكنيسة الكاثوليكية، وضعها الطبيعي الأول، وأن يمد يد المصالحة إلى البابا ليعيد العلاقات بينه وبين الدولة سيرتها الأولى. وهكذا كان اتفاق « الكونكوردا — Concordat » المبرم في عام ١٨٠١ دستور علاقات قامت على الوفاق والمودة بين الفاتيكان وفرنسا حتى عام ١٩٠٤، حين استبدل بها غيرها.

وكان اتفاق « الكونكوردا » في الواقع عملاً باهراً من أعمال الدبلوماسية النابليونية، تلاه « باتاريا » عام ١٨١٧ وبروسيا عام ١٨٢١ على أن تنسجا على منوال فرنسا، إذ عقدت كل من المملكتين مع « الفاتيكان » اتفاقية تنظم سير العلاقات بينهما.

والحق أن العنصر السياسي لم يكن بارز الأثر في هذه الاتفاقات، غير أن مقام « الفاتيكان » في العالم الكاثوليكي، بله المسيحي عامة، كان ذا أثر ملحوظ في التيطرة على عقائد الملايين من سكان أوروبا على اختلافهم، فكان البابا بهذا الوضع قوة روحية كبرى يجني جانبها ويستجلب اكتساب عطفها ورضاها، ولاسيما بعد أن عادت الأوضاع الطبيعية إلى أوروبا في أعقاب عصر الارهاب الثوري، واستتبت شئون القارة إلى حين، إثر معركة الأمم وهزيمة نابليون في « واترلو » وهيمنة سياسة المؤتمرات على ممالكها وشعوبها.

والواقع أن الدبلوماسية البابوية لم تنشأ أن تشتبك بادىء ذي بدء في غمار الأحداث الدولية أو أن تسام في معترك الشؤون الخارجية بين ممالك القارة، بقدر ما عكفت على تنظيم صلاتها الدينية بكنائس الدول الأوروبية، فلم تن عن العمل على توثيق سلطانها الروحي عن طريق مبعوثيها من الرسل البابويين عند الدول التي ارتبطت باتفاقيات تنظم علاقاتها بالفاتيكان، فظلت مطبوعة بطابع ديني محض، لا شأن له بأمور السلطان الزمني، على خلاف ما كانت عليه أوضاع البابوية طوال العصور الوسطى[1].

(١) Mowat, Diplomacy & Peace, P. 188—189.

غير أن هذا الاعتكاف في داخل نطاق السلطان الروحي وتسيير دفة العلائق الدبلوماسية المبنية على تلك الاتفاقات في حدوده ، ليس يعني أن البابوية حتى قرابة الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، لم تكن تباشر أي لون من ألوان السلطان الزمني . فلا يجب أن ننسى أن الفاتيكان ظلّ مسيطراً على مدينة رومية وما كان داخلاً من الأراضين في نطاقها، يباشر عليها جميعاً سلطانه الزمني بكامل المعنى الاصطلاحيّ ، حتى بدأ جلم الوحدة الايطالية يتحقق بدخول جيوش « بيمونت » المدينة المقدّسة ، واحتلالها عام ١٨٧٠ وجعلها عاصمة لملكة إيطاليا .

وعندما تيسرت الأسباب لملكة إيطاليا ، ولا سيما بعد استكمال وحدتها القومية والسياسية وزوال سياسة الفاتيكان ، أن تكون قوة عاملةً في المحيط الدولي ، ثارت بين الدول من جديد نظرية « الوضع الدولي للبابا » وعكف فقهاء السياسة الدولية على بحث تلك القاعدة التقليدية القديمة التي كانت تشترط لصحة انتخاب عميد المسيحية الأكبر وتربعه على عرش الفاتيكان ، أن يكون إيطاليّ الجنسية ، وانتهت إلى أن هذا الشرط « العنصري » — إذا ظلّ معمولاً به — فانه لا يحقق على الدوام الصفة الدولية للبابا ، ولا أن يضفي على « الفاتيكان » صبغة عالمية بارزة . ومن ثمّ ذهب فريق من فقهاء القانون الدولي إلى القول بأن الوضع الدولي البابوي لا يتحقق بكامل معناه إلاّ باعتناق نظرية الانتخاب الشعوبي العام، وتمهيد السبيل أمام الأمم الأخرى ، ليحظى أبناؤها من الكرادلة والأساقفة الذين استكملوا شرائط الانتخاب ، بالكرسي البابوي الرفيع ، أسوة برجال السلك الكهنوتي من أبناء الشعب الايطالي .

ولقد كان للنظريات الفقهية الجديدة التي حتمتها تطورات السياسة الدولية في العقود الثلاثة الأخيرة، أثر ملحوظ في توثيق ذلك الرأي الفقهي، وإن لم يدخل بعد في حيز التنفيذ العملي ، رغم أن أوضاع عصبة الأمم التي دعا « ولسون » حلفاءه إلى بحث فكرتها بعد الحرب العالمية الماضية ، كانت تقضي بدولية الانتخاب الخاص بتولي منصب سكرتيريتها العامة [1] حتى يعم التناوب عليها جميع أبناء الدول الداخلة في عضويتها وهيئاتها

بيد أن فريقاً آخر من الفقهاء والمشرعين الذين أشبعت روحهم بثقافة دينية مسالمة ، لم يروا في محاولة قلب الأوضاع الحالية وابتداع النظريات الفقهية بغية التعديل في القواعد المرسومة التي رسّخها الزمن ، إلا فرصةً سانحةً لبث التنافس والمزاحمة بين الشعوب ،

(١) المرجع السابق صفحة ١٨٦ ، ١٨٧

وإثارة كوامن التطاحن السياسي بين حكومات الدول المتناحزة ، في سبيل كسب هذا النصب لأبنائها . ولقد رأوا أن مثل هذه الخصومة قد تجر إلى إثارة منازعات أسدل عليها عصر الضياء في أوربة ، ستاراً كثيفاً . والاستمساك بعرى التقليد القديم الذي جرت عليه مراسم الانتخاب للكرسي البابوي ، يجعل مركز البابا على الدوام بمنجوة من تلك المنافسات السياسية فضلاً عن أن الفاتيكان ، في ظل هذا التقليد التاريخي العتيد ، لا تسلب حيدته ولا يثلم استقلاله ، الذي يستمد منه سلامته وحرمته في العالم المسيحي كله .

ولم يكن المنحى الدبلوماسي للبابوية منذ حركة الاصلاح الديني « Reformation » حتى منبثق عام ١٨٧٠ سوى سلسلة من السعي الحثيث لكسب مزايا دينية ومنح مادية للكنيسة الكاثوليكية . ولقد تجلت خصائص هذه الدبلوماسية الايجابية لتحقيق هذه المغانم الأدبية والمادية للكنيسة في عهد فيليب الثاني ملك أسبانيا ولويس الرابع عشر وخلفه لويس الخامس عشر ملكا فرنسا .

وفي القرن التاسع عشر ظلت الدبلوماسية البابوية منذ انعقاد مؤتمر فينا حتى نشوب الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا ، لا تألو جهداً في الاستمساك بسلطانها الزمني الذي هيأ لها السيطرة المطلقة على مرافق روما وأقدارها ردحاً من الزمن ، حققت البابوية في خلاله صورة من المجتمع الديني سادت فيه فضائل المسيحية . ولم يكن مستنكراً في غمار هذه الظروف أن تناهض سياسة الفاتيكان نشوة الروح القومي في ايطاليا ، تلك الروح التي كانت ترمي إلى تحقيق الوحدة السياسية الموموقة بين إماراتها ودوقياتها بزعامة « بيمونت » ومن ثمة اتجهت الدبلوماسية البابوية أيامئذ إلى مناصرة سياسة المؤتمر التي رسم « ميترنيخ » قواعدها بتأييد انجلترا وروسيا [1] والنمسا .

والحق أن فقدان الفاتيكان لسلطانه الزمني إثر تحقيق الوحدة الايطالية ، لم يحل في طباعه أيما تغير سياسي للفاتيكان ، كما كان ينتأ بذلك أنطونللي Antonell الدبلوماسي الداهية الذي كان كاتماً لسر البابا « بيوس التاسع » منذ عام ١٨٤٨ حتى عام ١٨٧٦ . فزوال السلطان الزمني ضمن لدولة الفاتيكان الخلاص من ربقة القيود الاقليمية والاعتزال وراء التخوم الجغرافية ، ومهد للفاتيكان اتباع سياسة دولية شاملة خرجت بنشاطه الديني والسلمي إلى الأفق الدولي الصحيح .

ولقد تحقق هذا الوضع على أكمل وجه له بعد « المعاهدة اللاتيرانية » Lateran التي

(١) المرجع السابق صفحة ١٨٨

أبرمتها الدولة الايطالية مع الفاتيكان عام ١٩٢٩ ونظمت بها العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين وأمكن بها للبابا، لاول مرة، أن يخرج عن احتجابه التقليدي الذي ظلّ حتى وقتئذٍ سنة متبعة منذ احتلال قوات « بيمونت » لرومية، احتجاجاً على العدوان العسكري والسياسي الذي نزل بالفاتيكان باحتلال « المدينة المقدسة »

وظلّ خلفاء « بيوس التاسع » ملازمين الفاتيكان الذي انكمش سلطانه السياسي على أثر تحقيق الوحدة القومية، واتبعت الحكومة الملكية الجديدة إزاء مدينة البابا وضعاً دولياً مسالماً، إذ اعتبرت الفاتيكان إقليماً أجنبياً عن أرض الدولة « extra-territorial » فلم تخضعه لهيمنة الحكومة المركزية، ولم تحتله بجيوشها أو موظفيها الملكيين [1].

وعلى ذلك لم يعد للاحتجاج التقليدي الذي اتبعته السياسة البابوية منذ عام ١٨٧٠ أي مبرر، لأن استنكار هذه السياسة لفكرة الضم Annexation لم يعد يحمل معنى انتهاك السيادة واهدار الاستقلال، ولم يكن في الواقع غير عمل سياسي طبيعي ضمت به مدينة رومية للملكة الجديدة لتصبح العاصمة، واقتطعت الحكومة الملكية بعض الأوضين التي تتاخم المدينة وتكون ضواحيها.

ومن ثمة اتسع المجال أمام الفاتيكان ليشارك في تعزيز الروابط الدينية وتقوية العوامل الأدبية بين أمم المسيحية، وتأكد هذا النشاط الجديد عقيب أن بارح البابا « بيوس الحادي عشر » مدينة الفاتيكان في موكب ديني مشهود اعلاناً لرضائه الصريح الذي ظلت الحكومات الايطالية المتعاقبة حريصة على الفوز به.

***

ولما كانت الدبلوماسية البابوية تستمد خصائصها من طابعها الديني الذي يعزز في روحه وتعاليمه مكارم الأخلاق الدولية بين أمم العالم، فقد هالها الصراع الدموي الرهيب الناشب بين أمم الحضارة، وينذر بالقضاء على مقوماتها ومثلها، فهبت نشيطة يقظة تدعو العالم الى كلمة سواء، وتهيب به أن يفيء الى الاخاء والعدل والسلم.

---

[1] راجع بحث N. V. Tcharykow بعنوان « The Roman Question » في مجلة Contemporary Review عدد مارس سنة ١٩٣٠ وكان «تشاريكوف» هذا ممثلا للامبراطورية الروسية لدى دولة الفاتيكان عام ١٨٩٧

وفي اليوم الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٣ أذاع قداسة البابا من محطة الفاتيكان اللاسلكية رسالة كريمة طالب فيها الأمم المتحالفة أن تحقق السلام في أقرب وقت، وناشدها ألا تدع هذه الحرب المروعة تنتهي بالتحطيم والتدمير بل يجب أن تستهل صفحة جديدة من الصلح الأخوي بين الشعوب .

ولقد رسم قداسته في تلك الرسالة ، التي سبقتها دعوات قوية مماثلة ، قواعد الدبلوماسية الجديدة التي تناصرها البابوية وتراها أمثل الأساليب لاقالة هذا العالم من عثرته ، ومنها نستشف سماحة العوامل التي حدت بهذا النشاط الدبلوماسي الى تكرار دعوته ومواصلة النهج في سبيلها ، حتى يعلو صوت العقل على صوت الدمار والفوضى .

قال قداسته « يزداد في كل أمة النفور من أساليب الحرب العامة ، كما أخذ الشك يتسرب الى جميع القلوب في هل يتفق استمرار مثل هذه الحرب مع المصالح القومية أو مع العقل . وقد تحطم صرح الثقة والايمان بين الأمم بعد المعاهدات الكثيرة التي نقضت ، والعهود التي نكثت ! وان الشعوب لا تستحق ، بعد الآلام والمتاعب التي عانتها ، سوى السلام والخبز والعمل ، هذه كل ما تطلبه الشعوب ، والله هو الحكم الأكبر لكل عدل وقانون . فالويل لمن يثيرون الاحتقاد ويبنون سلطانهم على الاضطهاد والمظالم وتعذيب الأبرياء ويمنعون بناء سلام عادل دائم » .

« إن الذين حسبوا أنهم قادرون على تحقيق انتصارات عسكرية خاطفة واحراز صلح سريع ظافر ، لم يشاهدوا ، حتى في بداية هذا العام الخامس من الحرب ، سوى الرعب والفزع »(١)

***

ولا شك في أن هذا الاتجاه السلمي الجديد ، مع ما يعززه من النفوذ الأدبي لهيبة المقام البابوي بين أمم العالم المتطاحن ، سيحطها على أن تطوي صفحة الأمس المحزنة ، وتستهل صفحة جديدة قوامها الاخاء والرخاء والعدل بين أمم العالم المتمدين .

---

(١) راجع جريدة الاهرام العدد رقم ٢١١١٩ الصادر في ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣

الريف والزراعة

في الولايات المتحدة الاميركية

لوديع فلسطين

يهمّ البلاد الزراعية، ومصر في طليعتها، أن تتبع أنباء التقدم الزراعي في العالم لتستطيع الافادة من خبرة الامم الاخرى في هذا الشأن.

١ — إضاءة الريف الأميركي

وأول ما يلفت النظر في الريف الأميركي نظام الاضاءة الكهربائية الذي ينتشر في عددٍ كبيرٍ من قرى الولايات المتحدة الاميركية.

فقد استطاع الأميركيون في مدى سبع سنوات إضاءة ما يزيد على مليون منزل ريفي تضمّ زهاء خمسة ملايين نسمة. فأضحى هذا العدد الضخم من الفلاحين ينتفع بمزايا الاضاءة الكهربائية الجمّة.

أنشئت إدارة إضاءة الريف بالولايات المتحدة في مايو سنة ١٩٣٥ بناءً على أمر الرئيس فرنكلن روزفلت، واتضح بعد مضي سبع سنوات من قيام هذه المؤسسة أن أصبح ٢٥ في المائة من القرى الأميركية البالغ عددها ٦٫٨٠٠٫٠٠٠ قرية تضاء بالكهرباء.

وكان تحوّل الإضاءة من الزيت إلى الكهرباء مصحوباً بتطور اجتماعي واقتصادي كبير. فقد أصبح الحصول على المياه النقية في الريف ممكناً، وأدّى ذلك إلى تحسن صحة الريفيين. كما أن انتشار الكهرباء جعل من اليسّر على الفلاحين اقتناء ثلاجات لحفظ المواد الغذائية، ووفر عليهم الخدمات التي كان يؤديها الكوّاثين والغسالين ومن إليهم.

ومن أهمّ ما نتج عن تطبيق هذا النظام الجديد أن اصبح مستطاعاً استعمال الآلات الزراعية، عوضاً عن سخرة الفلاحين في أعمال الفلاحة المختلفة.

ومما يجدر ذكره أن مشروع الإضاءة الريفي الكبير، قام على اموالٍ أقرضتها

الحكومة الأميركية المركزية (الفدرالية) إلى جمعيات تعاونية أقيمت خاصة لهذا الغرض أو إلى مؤسسات عامة لا تسعى إلى ربح ذاتي .

ووضع إلى جانب القروض ، نظام خاص يمكن بمقتضاه ردّ قيمة هذه القروض ثانيةً إلى الحكومة في مدى ٢٥ عاماً .

ولعلّ المثل التالي يبين لنا الطريقة التي أدّت إلى إضاءة الريف الأميركي .

يدعو ممثل الحكومة الأميركية المركزية فلاحي قرية من القرى إلى اجتماع عام يُظهر فيه الفلاحون رغبتهم في مدّ الأسلاك الكهربائية في قريتهم . فتتكوّن هيئة تعاونية تشرف على تنفيذ هذه الرغبة ، تُقرضها الحكومة المركزية نفقات مشروع الإضاءة ، فتمدّ الأسلاك في أرجاء القرية وتطالب الفلاحين بسداد نفقات استهلاكهم من الكهرباء وتقوم بدورها بتسديد الأقساط الحكومية ، مما حصلت عليه من المستهلكين . وتهمة الجمعيات التعاونية القيام بشراء الكهرباء من مراكز توليدها على أساس سعر الجملة ، ثم بيعها الى المستهلكين بسعر القطاعي ، فيكون ربحها هو الفرق بين السعرين . ويستغل هذا الربح في تصفية ديون الجمعية التعاونية للحكومة المركزية .

هذا وقد أنشىء في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأميركية ٤٥ مركزاً لتوليد الكهرباء تقوم بمهمة مدّ الهيئات التعاونية بالقوى الكهربائية اللازمة . وكان من نجاح المشروع أن ما يزيد على ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أقرضتها الحكومة الى نيف وثمانمائة مؤسسة عامة تقوم بنشر الكهرباء في مختلف أنحاء الريف الأميركي .

هذه لمحة عن مشروع ريفي ناجح في بلادٍ زراعيّة ناجحة .

٢ — المزارع النموذجية

استطاعت خمسون مزرعة أميركية تدار بإشراف كلّ من « إدارة البحوث الزراعية الأميركية ، والمختبرات ومراكز البحث الاقليمية » أن تغير الخريطة الزراعية للولايات المتحدة الأميركية . فأمكن في إحدى هذه المزارع التجريبية ، اختراع طريقة للزراعة الجافة أدت إلى تحويل المناطق الصحراوية في الولايات المتحدة الأميركية إلى مساحات تزرع فيها الحبوب . وتوصّل الباحثون إلى نوع من الحبوب يتطلب قليلاً من الرطوبة ، فزرعوه في هذه المزارع التجريبية ، وكانت النتيجة أن أصبح ثلاثون مليوناً من الأنفس يعيشون على هذا النوع من الحبوب ، وأن يستثمروها لعمل الخير اللازم لأهالي الولايات المتحدة وجنودها وحلفائها .

وقد أجريت تجارب مضنية لزراعة فول الصويا في نوع من التربة يشبه تربة غير الشرجاني في روسيا ، وكان نجاحها مدعاة لأن تشحن الولايات المتحدة إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية مقادير من فول الصويا ، الذي لم يسبق لروسيا أن استنبتته .

وأمكن لاحدى الزارع الأميركية ، أن تحرز نجاحاً ملحوظاً في استنبات نوع جديد من القمح يزيد عدد الحبات في السنبلة الواحدة منه بمقدار ٥٠ في المائة من عدد الحبات في سنابل القمح العادي . فكان من نتيجة ذلك أن أصبحت الولايات المتحدة الأميركية الآن تملك عدداً كبيراً من مخازن الغلال الزائدة عن الحاجة ، يمكن عند الضرورة شحنها إلى أوربا وآسيا وشمال أفريقية لتموين البلدان التي تأثرت سياستها الغذائية بفعل الحرب . وتدار محطات التجارب الزراعية التابعة لوزارة الزراعة الأميركية لمصلحة الفلاحين الأميركيين ومعاونتهم ، وكذلك بمعاونة طلاب الزراعة في جميع الولايات ، فهي والحال هذه تمثل جميع درجات المناخ وأنواع التربة .

ويتعاون العلماء مع الفلاحين في انتاج أنواع جديدة من النباتات ، وتحسين سلالات الماشية ، وزيادة الانتاج المحلي من بيض الدجاج ، واختراع المواد الكيميائية اللازمة لعلاج أمراض النباتات .

ويخسر زراع الحبوب في المناطق الغربية من الولايات المتحدة الأميركية كميات هائلة من القمح سنوياً لاصابتها بمرض « الصدأ » ، غير أن البحوث التي تجريها الزارع الحكومية تمخضت عن كشف نوع جديد من القمح لا يصاب بالصدأ لمناعته . وغلة الفدان منه تزيد على غلة الأنواع الأخرى . فأمكن بأساليب التسميد المستحدثة والأنواع الجديدة من الحبوب أن تتزايد غلة الشعير والقرطم والحنطة والحمص . وأصبحت الولايات المتحدة تنتج من هذه المحصولات ١٢٥ في المائة أزيد مما كانت تنتجه قبل عشر سنوات .

وتواصل الهيئات المختصة بنجاح مكافحة الحشرات التي تفسد الفاكهة وسوس القمح ودودة القطن وأمراض الماشية وتعارب جميع الأدواء التي تؤثر في زيادة الموارد الغذائية للولايات المتحدة الأميركية .

ويطوف ألوف من مندوبي مصلحة الزراعة الأميركية على القرى لابلاغ الفلاحين نتائج بحوث هذه الزارع بطريقة واضحة ، وإحاطتهم بجميع التحسينات التي تطرأ على الزراعة . كما انهم يقومون بعرض مشكلات الفلاحين على الباحثين ليتعاونوا على حلها .

وحدث مرة أن اشتكى فلاحو الأراضي الجنوبية في الولايات المتحدة من أن ماشيتهم

عزيلة سقيمة ، فأوعزت الحكومة خبراءها إلى تلك المنطقة ليتقصوا أسباب هذه الشكوى ، فاتضح لهم أن الماشية من نوع لا ينضج عرفاً يلطف من حرارة أجسامها : وعندما لقحوا الماشية بنوع جيد من المواشي يلائمها الجو الجنوبي الحار ، تحسنت أنواعها ، وتضاعف إنتاجها .

وأمكن بالعناية الفائقة بالدجاج أن تبيض الدجاجة الواحدة في المزارع الأميركية حوالي ٢٥٠ بيضة في العام ، واستطاع هؤلاء العلماء أنفسهم زيادة إنتاج الولايات المتحدة من لبن البقر بمقدار ٢٠ في المائة ، وضاعفوا النسبة الغذائية في الزبد . كذلك رأى أصحاب مزارع الليمون والبرتقال أن الأشجار تنمو هزيلة ، فاستدعوا اخصائيي الحكومة ، واتضح لهم أن الأشجار الناجحة تنبت في تربة تحتوي على نسبة قليلة من الخارصين (الزنك) وان البساتين المصابة تعوزها هذه المادة ، فعولجت على هذا الأساس وعادت إلى الأشجار عافيتها .

وفي السنوات العشر الأخيرة وحدها ، استطاع علماء الحكومة ومندوبوها متعاونين ، زيادة إنتاج الحقول الأميركية بما لا يقل عن ٢٥ في المائة وهم يواصلون أعمالهم الآن . فاستنبتوا أنواعاً جديدة من القطن المتين الطيلة وأنتجوا أنواعاً جديدة من الفاكهة والمحصولات المختلفة ووفقوا إلى كشف فوائد جديدة لجميع المحصولات ، واستغلوها جميعاً أفضل استغلال ، فأصبح القمح الهندي مثلاً ، يستعمل في ما لا يقل عن ألف غرض صناعي عدا استعماله غذاء . وفول الصويا استعمله العلماء في صناعة المطاط الصناعي وفي بناء الطائرات وفي إنتاج مئات من الأدوات النافعة . واستطاعوا بكافة الوسائل استغلال ذكائهم ومعارفهم وصبرهم في الاكثار من محصولات الحقول الأميركية .

***

تلك أمثلة للمشكلات التي نجحت في حلها المزارع الحسين النابهة لحكومة الولايات المتحدة الأميركية . ولم تنجح تلك البحوث في تحسين حال الفلاحين وحسب ، بل ساعدت الحكومة الأميركية في تغذية جيشها الكبير .

وإبان الحرب القائمة ، أنشأت مصلحة الزراعة الأميركية قسماً خاصاً لبحث الحالة الغذائية في العالم ودراسة المزايا النسبية التي تترتب على استنبات محصولات زراعية معينة في بلاد لها من جوها وتربتها ما يجعلها أنسب مكان لإنبات هذا النوع من النبات . كما انها وضعت برنامجاً وثيقاً لانشائها بعد الحرب .

الزرمانقة وأصلها

للمؤلف أنستاس مارى الكرملى
من أحياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

جاء في قاموس الفيروزابادي : والزُّرمانقة بالضم جبة من صوف . معرب أشْتُربانَه أي «متاع الجمال» وقد تبع هذا الرأي كل من بحث عن هذه الكلمة من أبناء الناطقين بالضاد . ونحن لا نرى البتة هذا الرأي ، إذ بين الحرفين من الفرق ، كما بين الثرى والثريا ، أو كما بين الربقة والبقرة . ولا يهمنا قال فلان كذا ، أو قال آخر كذا ، انما نرمي إلى التحقيق ليس إلاّ .

والمستشرقون لم يقبلوا هذا الأصل الفارسي الذي يحيل بعضهم عليه ، فقد نظر فرنكل (ص ٢٨٩ من كتابه إلى رأي نولدكي أي الى انها من (كره بان) أي حافظ الرقبة من (كره أي عنق او (بان أي حافظ) ولكن كليهما شك في صحة هذا الأصل ولم يقنع بهذا الفكر . ولهذا جعل وراء (كره بان؟) علامة الاستفهام ، دلالة على عدم اقتناعه به .

ونحن أيضاً لا نوافق على رأي من يقول بهذا الأصل أي (اشتربانه) ولا على رأي من يقول إنها من كره بان ، والذي عندنا ان (الزرمانقة) مأخوذة من (جرمانقة) وهي اسم بلدة تسمى اليوم(مرْعَش) ، وكانت تعمل فيها أكسية منسوبة اليها ، وهي جبب من صوف أو من وَبَر الجمال .

قال السيد مرتضى في تاجه : « الزرمانقة بالضم جبة من صوف . نقلهُ الجوهري . ومنه الحديث : ان موسى عليه السلام ، لما أتى فرعون ، أتاه وعليهِ زرمانقة ، يعني جبة صوف . قال أبو عبيد : أراها عبرانية . قال : والتفسير هو في الحديث . ويقال : هو فارسي معرب اشتربانه أي متاع الجمل» اه . — قلنا : وفي القاموس — كما رأينا : متاع الجمّال ، بتشديد الجيم يليها ميم مضمومة

قلنا : ليست في العبرية كلة تشبه هذا اللفظ ولا هذا المعنى . وأما في الفارسية ،

فالكلمة (اشترباه) بعيدة عن الزرمانقة . هذا فضلاً عن ان (اشتر) معناها الجمل ، الحيوان المعهود ، لا الجمّال أي صاحب الجمل . ولم ترد (باه) عندهم إلاّ بمعنى العانة، ولا محل لهذا المعنى هنا .

والمعروف في الفارسية (أُشْتُرْوَا) وهو ثوب يتخذ من الوَبَر و (أُشتروَانْ) أو (أُشترباذ) حمل أو وَقر جمل. و(اشتُراباه) أو (أُشتُراوه) ثوب يتخذ من الوبر، وقد صحفهُ بعضهم فقال (أُشترباه) وكلاهما خطأ ، إذ لا وجود لهما في الفارسية الفصحى . والصواب أن الكلمة من اللاتينية Germanicíana ومعناها مَرْعَشِيَّة بتقدير جُبَّة ، فيكون معنى زُرْمَانقة : جبة مرعشية ، أو تعمل في مرعش ، وهي من مدن الثغور ، لأن هذه البلدة تسمى بالرومانية Germanicia (جرمانيقية) واليونانيون لا يستطيعون التلفظ بالجيم ، فيجعلونها زايًا ولهذا يقولون (زرمانيقية) ، ثم خففت تخفيفاً طبيعياً بحذف الياء فقيل زرمانقة .

والكلمة معروفة اليوم عند الارمنيين (وهم الذين يسمون وهمًا وخطأً كلدانًا وسريانًا) بصورة (جُرْمِيناقَا) بمعنى زرمانقة؛ وقد أفرغوها بقالب لغتهم، صاغها بنو مُضَر صياغة مُضَرية ، وفسرها بعضهم بانها ثوب عشو ومبطن وقد وردت هذه الكلمة بصورة ثانية في لساننا هي جرمقي وزان زرجي .

***

الكساء الجرمقي هو الزرمانقة

الكساء الجرمقي هو عندنا الزرمانقة بنفسها ، وان لم يصرح بهذا المعنى أرباب نصوص اللغة قال في القاموس في تركيب (ج ر م ق) ، الكساء الجرمقي بالكسر ، وفي التاج : « قال الفراء : كساء جرمقي ، بالكسر ، كذا في التكملة » ولم يزد على هذا القدر ولم يشرحوه » . اهـ

والذي عندنا أنهُ الزرمانقة نفسها ، فهذه الصورة اللاتينية، والجرمقي بالصورة المخففة العربية، كما قالوا في عبد القيس وامرىء القيس وعبد مناف وعبد شمس ، عبدلي وامرئي ومناف وعبشمي، الى نظائرها، وكل ذلك مألوفٌ للخفة .

ولماذا لم يشرحوا الجرمقي كما شرحوا الزرمانقة ؟ — قلنا : لذلك أسباب ، منها :

وهو الأول : انهم كانوا يعرفون معناه حين تدوينه في المعاجم .

الثاني : شهرة ذلك المعنى والشهرة تغني عن التعريف .

الثالث : استغناؤهم بقولهم : كساء وما كان مشهوراً يومئذٍ بكساء هو الزمانقة ولم يفكروا أن الأجيال القادمة قد تختلط بمختلف الامم ذوي الألسنة المختلفة فيعسر معرفة المعنى إلَّا بشرح بتفصيل واضح

الرابع : لعلَّ بعضهم شرحوه ولم يتصل بنا.

الخامس : ضبطه بعضهم وزان جعفري ، كما فعل صاحب (معيار اللغة) وهو الميرزا محمد علي بن محمد صادق الشيرازي من اللغويين المتأخرين، ومعجمه مطبوع في طهران طبعاً حجريًّا سنة ١٣١١ للهجرة ، فقد قال في مادة (ج ر م ق): « جرمق كمسكر : بلد ، أو موضع وكساء جرمقي منسوب اليه اه . وضبطه ضبط قلم كمسكري، وهو خطأ واضح لأنه مخالف لجميع من صرحوا بضبطيه أي كزبرجي بكسر الزاي والراء .

اختلاف بعض اللغويين المحدثين في شرحه

جاء في ذيل أقرب الموارد للشرتوني : « كساء جرمقي بالكسر كذا بالنكلة وهو منسوب الى الجرامقة » اه

قلنا : قوله : وهو منسوب الى الجرامقة ، ولم يرد في النكلة ، فهو من عنده ومن زياداته .

وفي البستان وهو للشيخ عبد الله البستاني : « الجرمقي كساء منسوب الى الجرامقة » — وهذا خطأ في خطأ . إذ لم يقل أحد : جرمقي بدون منعوت بل قال جميعهم كساء جرمقي . ولم ينسبوه الى الجرامقة، بل نسبوه الى جرمانيقية أي مَرْعَش وهي مدينة لا قوم، فاختلط عليه الحابل بالنابل والبقة بالبقرة .

وجاء في معجم فريتغ العربي اللاتيني ما هذا معناه . « زرمانقة . كذا . أي انه ضبط سبط قلم بفتح النون وهو خطأ ، جبة من صوف (نقلا عن القاموس) : ويقال : إنها من الفارسية : اشترباته . وعليه يدفعنا اشتقاقها هذا ، الى القول بأنها من ألبسة الجاهلين » اه وهذا كلام معقول وان لم يكن صحيحاً

والسبعون وبلاغتها

استطاع غلادستون، السياسي الانجليزي المعروف، أن يشن معركة سياسية، أصبح بعدها رئيساً لوزارة انجلترا وهو في الرابعة بعد الثمانين. ورسم «تنيان» صورة من روائع الفن عنوانها «المسيح متوّج بالأشواك» وهو في الخامسة بعد التسعين. وكان «أوليفر ديتول هولمز» عضواً ممتازاً في محكمة الولايات المتحدة العليا، ولم يعتكف، إلاّ بعد أن بلغ الأول بعد التسعين. فالعمر إذاً أمرٌ ذاتي، ولا يُعَدّ دائماً بطول السنين والأعوام.

تكون الحياة ثمينة ما استطاع المرء أن يعيش سعيداً مفيداً لنفسه وللناس. ولا شك في أن الانسان لا ينتظر أن يعيش وهو في السبعين محتفظاً بنفس القوة والنشاط اللذين يكونان له وهو في الأربعين. ولكنه مع ذلك يستطيع أن يؤدي في ذلك السن عملاً مفيداً وأن يعيش في كنّه هادئاً وادعاً، ما دام تكوين بنيته موائماً لمطالباته، وعاداته منفقة مع ما تقتضيه شرائط الصحة. صحة الجسم والعقل والروح.

الراحة الواجبة

إذا تقدم بك السن فعمرت في أصيل الحياة، فاعمل بهدوء وتؤدة وتجنب العجلة وامش بهوادة، أي على قدر ما تجد عندك من طاقة، فلا ترهق عضلاتك وأعصابك. ذلك بأن مقدار الحركة في الحياة يجب أن يتكيّف دائماً بنسبة ما تجد في جثمانك من قوة ونشاط وكفاية كل يوم. فالراحة إلى الحد الواجب والتكاسل والنوم، أصبح من الأشياء الضرورية اللازمة لمن هم في السبعين، وإغفالها أمرٌ لا يعين على السلامة.

فبعد أن تقضي عيشة هادئة، بعيداً عن مهام حياتك، مستقر النفس، منصرفاً عما يثيرها ويضنيها، فالفراش أولى بك إذا بلغت ساعتك التاسعة أو بعدها بقليل. والذين يشعرون بالقلق إذا جنّ الليل، والذين يصابون بالأرق لغير سبب طبيعي، يجمل بهم أن يلجؤوا إلى حمام ساخن، فانه خير ما يهدئ الأعصاب، ويعيد للنفس استقرارها، ويجلب

النعاس الهادي إلى الجفون المتعبة . فبعد عشرين أو ثلاثين دقيقة تقضيها في حمامك ، جفف جسمك بعناية ، واستلق طالباً الراحة موطناً نفسك عليها ، فيهجم النعاس بعيفيك ثم تنام راضي البال . فالتراخي والاستسلام إذا ما أويت إلى فراشك ، والصرافك عن التململ والتقلب على جنبيك ، من عجلبات النوم ، فاذا أعيتك الحيل وطار النوم من عينيك ، فالجأ إلى الطبيب غير متوان ، فان ذلك خير سبيل ، وآمن وسيلة .

إن بذل أي جهد عضلي أو ذهني محاولة جلب النوم ، من أخص الأشياء التي تجلب اليك الأرق . وأعدى أعداء الأرق جلسة هادئة وعقل وادع ونفس مطمئنة . هنالك يأتيك النوم ساعياً اليك . ومن الضروري لك أن تعلم أن الراحة والهدوء عاملين من أعظم مجلبات النوم . وعليك أن تقاوم ميلك إلى العقاقير المنوّمة ، لانها أول بواعث التخدّر ، فتحدث حالة من الخدر العقلي تهدّك ، ولكنها ليست نوماً طبيعيًّا ، وكل العقاقير المنوّمة من العوامل المحدثة للعادات التي تستبد بك على اختلاف في الدّرجة والقدر ، ولن يرضى بها انسان عالم بحقيقة ما تؤدّي اليه .

ويجب الانقياد إلى الرياضة البدنية ومرانة الجسم خارج المنزل ، كلما كان ذلك مستطاعاً . والمشي من الرياضات المثالية لجميع الناس وفي كل أطوار العمر ، فلا تهمله .

الازدحام بالطعام يعجّل العمر

الكلام في الحمية الواجبة لمن بلغ السبعين ، وبخاصة في عادات الأكل والشرب ، وفي ملاحظة الميل الى الرّبالة ، من أخصّ ما ينبغي أن ينصرف إليه المعنيون بأمر صحتهم . فان انصرافك إلى لذائذ المائدة ، أمرٌ قد يجر عليك أمراضاً كثيرة وآلاماً أنت في غناء عنها .

فالمعدة المزدحة لا يقف بها الامر عند خلق الاضطرابات المعوية الشديدة ، بل انها عقبة كؤود تعوق حركة القلب عند المتقدمين في السن . والازدحام بالطعام من شأنه أن يحدث مع الزمن ميلاً إلى الرّبالة ، وهي مما يؤثر في وصلات الجسم السفلى ، فتتراخى وتتعطل عن القيام بوظائفها الحيوية والتّقوس من الأمراض التي يتفاقم أمرها ، إذا عاق القلب عن حركته الطبيعية ، ان لم تكن إعاقة القلب عن تأدية واجبه ، سبباً في إحداث الاصابة به ، لأن القلب إذا عاق عن عمله ، اضطر إلى زيادة الجهد بنسبة كل رطل يزيد في وزن الجسم . والرّبالون قلما يمتد بهم العمر . وقد دلت التجارب على ان كل رطلين في الوزن تلقاء بوصة في الطول ، هو المعدّل الطبيعي للبالغين ، فاذا زاد المعدّل أو قلّ في نطاق عشر أرطال ، لم يدلّ ذلك على تجاوز ذي بال ، ولكن لا ينبغي أن يتعدّى ذلك .

يتطلب الاحتفاظ بالصحة غذاء بسيطاً يطهى بطريقة خالية من التعقيد، والحديقة والحقل هما أمثل مكانين لتزويدك بالأغذية السهلة . والبقول تحتاج إلى الطهي ، أما الفواكه والجوز ، فقد طهتها الشمس ، فوق انها مأكولات شهية غنية بضروب الفيتامين والمعادن . وهذه الأطعمة ، مضافاً اليها اللبن والزبد والجبن والبيض ، في مجموعها غذاء مفشط كاف للاحتفاظ بحالة الصحة . واستكشاف ضروب الفيتامين ، قد أحدث انقلاباً في التغذية ، يعدّ الآن من أسس الصحة الجوهرية .

الكحول والطباق

ليس لتعاطي أنواع الكحول من مبرّر بحال من الأحوال ، فانها جميعاً من أضر الاشياء بحالة الصحة . وبالرغم مما يعتقده أكثر الناس ، قد انتهى الباحثون الى أن أية كمية من الكحول صغيرة كانت أم كبيرة ، ليست من الشبهات في شيء ، بل هي على العكس من ذلك مخدرة مذهبة للحيوية ، وهما مؤثرات تخل بكفايات العقل العليا . ويرجع الى إدمانها الكثير من مآسي الحياة الانسانية .

وتشرّب النيكوتين، وهو سم الطباق النافع ، عادة أخرى من العادات المستقبحة التي تختزل الحياة ماديًا وعقليًا ، كما أبان عن ذلك بأجلى بيان « ريموند بيرل » الاستاذ بجامعة « جون هوبكنز » . فان هذا المخدّر يترك أثره المباشر في الأعصاب والدماغ ، ويثير الرّوّار والشّعب الرئوية ، بالرغم مما يحاول البعض من التاجرين بأعمار الناس أن يدخلوه في روع المدخنين. والنيكوتين من مسببات قرحة المعدة وبثور الامعاء ، وهو مما يعوق دورة الدم ، بما يحدث في الشرايين من التصلب .

فإذا أردت أن تنعى كل ذلك فالجأ إلى الطبيعة . إلى حديقة حسنة التنسيق تناثرت فيها الزهور الجميلة والأشجار الغضة . وحياة الريف من أفضل الأشياء التي تنسيك همك وتقوّم حياتك .

تجنب الوحدة

ومما يحسن بك أن تجتنب الوحدة ، وأن تلزم مصاحبة أقاربك وأصدقائك والذين هم من جيل أصغر من جيلك . فان ضحكات الأطفال وعبثهم ، وألعاب الشباب ومرحهم، أشياء لها أثرٌ بعيد في بث الحيوية وتجديد الشباب ، فضلاً عما يعود على الجيل الناشيء من الفائدة بمباشرة الكبار ، إذ يتزودون منهم بالنصائح الطريفة والمعلومات وتاريخ الأيام الماضية .

وعلى الرغم من أن التقدم في السن يضعف الذاكرة بعض الشيء ، فان العقل من شأنه أن يتابع الاتساع والنماء طوال العمر ، والانسان مهما تقدم به السن في مكنته أن يتعلم شيئاً جديداً وأن يتزود من المعرفة بما لم يكن يعلم . وهنالك من استطاعوا أن يستوعبوا لغات صعبة كالاغريقية بعد أن بلغوا الثمانين من العمر ، فتشربوها وتفقهوا في آدابها . فاذا عكفت على تعلم شيء من هذا وانصرفت إليه ، فان ذلك مما ينمي آمالك ويفيد صحتك ويوسع آمالك ويزيد رغبتك في المتعة بالحياة . لان لكل طور من أطوار العمر متعة ، ومتعة الشيوخ الاتصال بالحياة من طريق جدي ، كتحصيل العلم أو استيعاب المعرفة .

ومن بلغ السبعين فانما قد بلغ عصره الذهبي ، فمن واجبه إذاً أن يتمتع بحصاد ما زرع في أيامه الاولى ، بأن يقف حياته المفعمة بتجاريب الزمن على خدمة الجيل الناشيء من أولاده وأقاربه والذين يلوذون بهم . فاذا كان ممن هم في سعة من العيش ، حف به سلام الحياة ، وإن له في الريف الجميل لحياة أكثر سلاماً ودعة ، وفيه يجد طبيعة غضة الاهاب تزوده بما ينعم نفسه جمالاً وقلبه انشراحاً ورئتيه هواة منعشاً يجدد كيانه .

طبيبك يوفر عليك مالاً ومرضاً

إن كثيراً من المرض والآلام والمضايقات مع ما يتبعها من نفقات وبذل ، يمكن تلافيها إذا بادر الناس بالذهاب الى الطبيب قبل أن يضطروا الى الذهاب اليه بزمن يسير . وكل انسان في حاجة الى فحص كامل يقوم به طبيب الأسرة كل سنة على الأقل ، وما يبذل في سبيل ذلك ، انما هو في الواقع اقتصاد مفيد . فاذا راعيت مع ذلك اتباع قواعد الصحة ، ضمنت حياة خالية قدر الامكان من كثير من الآلام التي تصاحب الشيخوخة .

إذا تقدم بنا السن فان العظام تصبح قصيفة هشة ، حتى أن سقطة على طنفسة ، قد تحدث فيها كسراً . وذلك يستدعي البقاء في الفراش مدة طويلة حتى تلتئم ، وقد لا تلتئم . وكذلك يصبح التوازن عسيراً واستقامة الجسم غير تامة ، مما يجعل احتمال السقوط متوقعاً في أي وقت . فعلينا أن نتجنب المشي على أرض الغرف المدهونة بالشمع والطنافس غير الثابتة ، وينبغي أن نستعين بعصاً في طرفها الاسفل قطعة من المطاط تجعلها ثابتة . ويجب مع هذا التحفظ أن نحتاط من البرد والصقيع وتغير الطقس ، فان عامة ذا يحدث اضطراباً في التنفس يعقبه يقتضي أمراضاً منها التهاب الرئة . ولا تتوان عن ترك الاماكن المزدحمة الحارة ، أو التي تساورها تيارات الهواء ، إذا أردت أن تتجنب الاصابة بمرض من أمراض البرد ، فان صحتك ينبغي أن يكون لها الاعتبار الأول .

اصلاح الخط العربي

للدكتور مهدي علام اوى

عميد دار المعلمين العالية ببغداد

— ١ —

١ — تمهيد : ضرورة التيسير في اللغة

تيسير اللغة العربية أمرٌ تحتمه نهضة العرب الحديثة . فإن النهضات القومية لا تقوم في هذا العصر على أكتاف فئة قليلة من الناس تتزعمها فحسب ، بل على سواعد كافة أبناء الشعب . ولا تكون النهضة قوية الأركان الا إذا كان يدعمها منهاج واسع لتثقيف الجمهور، وخلق وعي فكري وخلقي وسياسي واجتماعي فيه . ولما كانت اللغة تلعب دوراً هاماً في هذا المنهاج التثقيفي ، وجب لذلك تطويرها وتيسيرها لتصبح ملكاً مشاعاً لسواد الشعب العربي يتسيغها ويستسهل تعلمها .

ولقد سبق للغة العربية أن تطورت في جميع نواحيها أيام النهضة العربية الأولى بمجيء الاسلام وما عقبه من فتوحات العرب العظيمة واحتكاكهم بمختلف الأمم والشعوب . وكان ذلك التطور محتوماً بمقتضى الحياة الجديدة التي بدأ العرب يحيونها ، ولولاه لما اتسعت اللغة العربية لضروب العلوم والفنون والفلسفة ولمقتضيات التجارة وسائر أساليب العيش ، بل لوقفت حجر عثرة أمام كل تقدم . ونحن اليوم في وضع يماثل وضع أمتنا الأول . نحن على أبواب حياة جديدة ونظام في العيش جديد ، تقتبس الأفكار والعلوم الحديثة وتتطور عقليتنا تطوراً جديداً نتيجة لاحتكاكنا بالأمم الأخرى ونتيجة لنزعتنا الجديدة الى الحياة الحرة المستقلة . ولم يعد من الكافي في عصرنا الحاضر أن يقتصر شعور النهضة والتثقيف على طبقة خاصة كما كان الأمر في العصور السالفة . فما من أمة تستطيع حفظ كيانها في هذا الزمن وسواد شعبها جاهل . فاذا كان الأمر كذلك ، وجب علينا أن ندخل على لغتنا

من التيسير ما يسهل اقتباسها وتعلمها على كافة أفراد الشعب العربي ، وذلك بتخليصها مما في خطها واملائها من الصعوبات ، ومما أدخله على صرفها ونحوها متعمقو النحاة في القرون الوسطى من التعقيدات . كما ان علينا ان نجعل أدبنا سهلاً قريب المنال من عامة الشعب بتخليصه من معقد التراكيب وغريب المفردات ، وأن نكوّن أدباً للاطفال يستهويهم ويحبب اليهم آدابهم ولغة آبائهم . وما القصد من ذلك سوى تسهيل طريق النهضة القومية وتيسير انتشار اللغة القومية وآدابها بين أبنائها ، فبدل أن تكون لغة يستصعبها حتى الخاصة ، تصبح لغة سهلة المنال على العرب اجمعين . وهذا وحده أعظم سبيل لتعزيز اللغة العربية واعلاء شأنها وضمان اطراد تقدمها . فطريق النهضة اذاً هو طريق التيسير والتبسيط واطراح الحشو والتعقيد .

وليست هذه الشكلة مشكلة لغوية أدبية فحسب ، بل هي مشكلة تربوية عظيمة . فالمربون والمعلمون هم الوكلون بتعليم اللغة العربية وهجائها وآدابها لابناء الأمة ، وما يلاقونه من صعوبة في تعليمها واضح لدى كل ذي عناية بهذا الموضوع . وقد نعى على المعلمين والمربين بحق أساليبهم العقيمة في التعليم ونعزو إلى هذا العقم سوء تعليم اللغة ، ولكننا يجب أن نكون منصفين فنسمع من المعلمين والمربين شيئاً عن المصاعب التي يلاقونها في تدريسهم مما يرجع الى طبيعة اللغة وكتابتها وشيئاً عن آرائهم في كيفية تلافي ذلك .

٢ — اصلاح الخط العربي

على اننا في هذا المقال نود أن نحصر بحثنا في اصلاح الخط العربي ، تاركين البحث في تيسير الصرف والنحو وأساليب الكتابة والتعبير ، على كثرة ما يمكن أن يقال فيها . ولا بدّ لنا من القول منذ البدء اننا لسنا من دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي . بل عقيدتنا هي ان ضرر الانقلاب في مثل هذه الامور أكثر من نفعه . ولعلّ دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي مسئولون بعض المسئولية عن المقاومة التي تلقاها الدعوة إلى هذا التعديل ، وذلك لرد الفعل الذي يخلقونه بما يقدمون من الاقتراحات المتطرفة .

ونود أن نقرّر هنا ان تعديل الخط يجب أن يكون مستمدًّا من طبيعة خطنا ، يعدّله ويبسطه في التفاصيل . ولكنه يحتفظ بأساسه وجوهره . وكل اصلاح يتعدى هذه الحدود هو غير عملي التطبيق ، لا لما يلقاه من المقاومة فحسب ، بل للضرر الذي قد يدخله على اللغة ، فلا بدّ لنا من التسليم بأن الحروف العربية مزيتين عظيمتين تحمدنا عليهما سائر اللغات ،

المزية الأولى هي أنها مبنية على أساس صوتي صحيح يطابق فيه اللفظ الصوت إلى أبعد حد، وهذا ما لا يتوفر في معظم اللغات الأوربية الحديثة. والمزية الثانية هي ان الحروف العربية أشبه بالاختزال، لأن طريقة الكتابة فيها تعتمد على اهمال الحركات في معظم الأحيان، والاقتصار على الحروف الصحيحة التي تكوّن لباب الكلمات. نقول ذلك ونحن نعلم أن من الباحثين من ينعى على اللغة العربية نفس هذه المزية. وسنبين وجه الخطر في هذه النظرية فيما بعد، على اننا نعتقد أن كل اصلاح للخط العربي يجب أن يأخذ هاتين المزيتين بعين الاعتبار فلا يعمل على هدمهما.

***

ومن هنا يظهر خطل الفكرتين القائلتين بالأخذ بالحروف اللاتينية، وكتابة الحركات بطريقة الحروف. أما مشكلة الحركات فسنعود إليها فيما بعد. وإنما نود أن نحلل هنا الفكرة القائلة باقتباس الحروف اللاتينية لكتابة اللغة العربية، على غرار ما فعلته تركيا وليس غرضنا من ذلك إن ندحض هذا الرأي فحسب، فقد لا يحتاج ذلك إلى كثير عناء، ولكن لتوضيح مزايا الخط العربي، ولنبين كيف أن بضعة تعديلات بسيطة في خطنا لا تمس جوهره، كافية لجعله أحسن خط ممكن لكتابة اللغة العربية في العصر الحاضر، ومن أسهل خطوط العالم

٣ — الموازنة بين الخط العربي والخط اللاتيني

إن أهم ما يستند إليه دعاة الأخذ بالخط اللاتيني نقطتان — هذا اذا استثنينا مشكلة الحركات التي سنعود إليها:

أما النقطة الأولى فهي أن الخط اللاتيني أبسط من العربي، لأن للحرف فيه شكلاً واحداً لا يتبدل، ولأن الحرف منفصل دائماً بحيث يمكن للقارىء أن يحلل الكلمات إلى حروفها ويؤلف من الحروف كلمات بكل سهولة، على عكس الخط العربي الذي تتصل حروفه بعضها ببعض في الكلمات، وتتبدل أشكالها بحسب مواقعها. وأما النقطة الثانية فهي إنهم يشيرون إلى نجاح تركيا في اقتباسها الخط اللاتيني ومساعدة ذلك لها على نشر التعليم فيها بسرعة.

أما النقطة الأولى وهي بساطة الخط اللاتيني وعدم تبدل أشكاله، فلا أساس لها بل هي في الغالب إدعاء ناتج عن قلة تدقيق في الخط اللاتيني. فالواقع أن الخط اللاتيني ليس خطاً واحداً، بل خطين، أحدهما يستعمل في الطباعة. وثانيهما خط يدوي يستعمل للكتابة الاعتيادية،

ومع أن بعض الحروف بين هذين الخطين واحدة أو تتشابه تشابهاً يختلف في قربه أو بعده، إلا أن جانباً غير قليل من حروف الطبع يختلف في شكله عن حروف الكتابة. أضف إلى

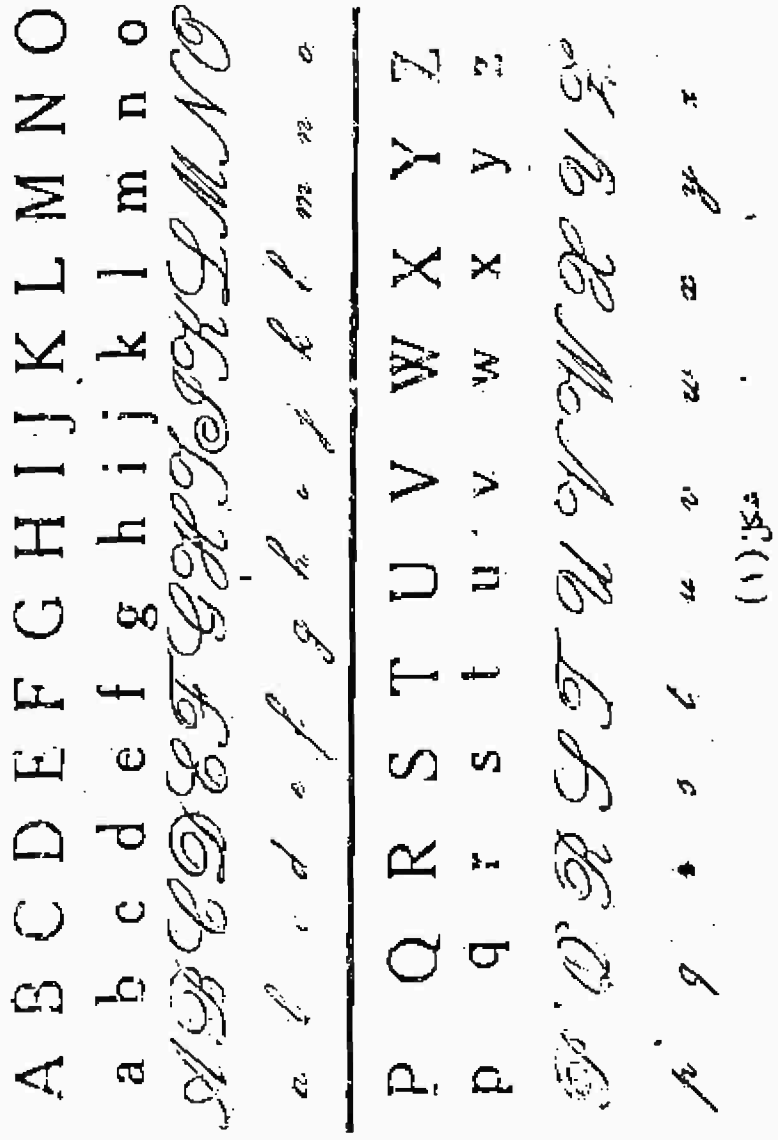

شكل (١)

ذلك أن حروف الخط البدوي تتصل بعضها ببعض كما تتصل حروف الخط العربي. ثم إن كل

واحد من هذين الحرفين لشكلان ، الشكل الكبير وهو مايعرف بالانكليزية بـ Capital letter وبالافرنسية بـ Majuscule والشكل الصغير أي Small letter أو Minuscule. وهكذا يصبح للكثير من الحروف اللاتينية أربعة أشكال بدلاً من شكل واحد كما يزعمون . ونظرة واحدة إلى جدول الحروف اللاتينية تكفي لايضاح هذه النقطة وبيان الفروق بين الحروف . (الرسم ١) أما الخط الالماني فهو على ثلاثة أنواع لاتيني وقوطي Gothic ويدوي . ولكل من هذه الأنواع شكلان كبير وصغير بحيث يصبح مجموع أشكال بعض هذه الحروف ستة ، لا شكلاً واحداً . أما الخط العربي وإن كان شكل الحرف فيه يتبدل بحسب موقعه في الكلمة، الاّ أنهُ هو هو في خطي الطباعة والكتابة لا تبديل فيه الاّ ما يندر .

وهنالك من يعيب على الخط العربي تقارب كثير من أشكال حروفه كالباء والتاء والثاء والنون، وكالجيم والحاء والخاء وغير ذلك . فانها لا تختلف احداها عن الأخرى إلاّ في وجود النقط أو فقدانها وفي عدد هذه النقط إذا وجدت . على أن شيئاً من هذا التشابه في اشكال الحروف موجود ايضاً في الحرف اللاتيني . فهنالك في الحرف المطبوع التشابه بين الـ p والـ d فانهما لا تختلفان الاّ بقلب أسفلهما ، وتشابه بين الـ b والـ h وبين الـ b والـ q . وفي الخط اليدوي نجد تشابهاً كبيراً بين الـ b والـ u والـ p والـ i وتشابهاً كثيراً ما يدعو إلى الابهام بين الـ a والـ o وبين الـ n والـ u .

***

ولقد أسهبنا في هذه النقطة ، لا لكي ننقد الخط اللاتيني، بل لنبين أن بعض الصفات المنتقدة في الخط العربي موجودة في الخط اللاتيني أيضاً ، وان كان وجودها ليس بمقدار ما هي عليه في الخط العربي ، وان التبديل الى الخط اللاتيني، لن ينجينا منها بتاتاً.

على أن قراءة أية لغة وكتابتها لاتتوقفان على مجرد معرفة أصواتها وحروفها، بل تعتمدان إلى حدّ بعيد على كيفية اجتماع هذه الأصوات والحروف في كلمات، وما يطرأ عليها من التبدل في اللفظ باجتماعها هذا . ومن هذه الناحية تفضل اللغة العربية معظم اللغات الأوربية بمراحل ، وعلى الأخص اللغة الانكليزية ، وبدرجة ثانية اللغة الافرنسية . فالحرف في اللغة العربية هو هو، له الصوت نفسه، دون تبديل أينما حل من الكلمة في أولها أو وسطها أو آخرها، ومهما كان نوع الحرف الآخر الذي يجتمع به . أي أن الخط العربي موضوع على أساس صوتي فونيتي تطابق فيه الحروف الأصوات مطابقة تكاد تكون كلية . ولا يخرج عن هذه

المطابقة الا حالات معدودة ككتابة الهمزة ، وكالفرق بين التاء المربوطة والتاء الطويلة وكالتمييز بين الالف المقصورة والطويلة ، وبين الظاء والضاد عند أهل العراق والجزيرة لا عند أهل الشام ومصر .

وإذا استثنينا هذه الحالات الشاذة وغيرها قليل ، كانت الكتابة العربية صوتية لا غبار عليها في تركيبها ، وهذا عامل تسهيل عظيم في الكتابة العربية واملائها .

وليس الأمر كذلك في اللغات الأوربية التي تستعمل الخط اللاتيني — على كل حال في تلك اللغات التي لي شيء من الاطلاع فيها وهي الانكليزية والفرنسية والالمانية . فان تركيبها الصوتي تشوبه كثير من الشوائب . ولعل الالمانية أحسن اللغات الثلاثة من هذه الوجهة والانكليزية أبعدها عن المنطق والنظام والفرنسية واقعة في محل وسط بين الاثنتين . وها نحن آتون ببعض الأمثلة في اللغة الانكليزية لأوضح الفرق العظيم بين بعض اللغات الأوربية واللغة العربية في هذا الشأن .

***

خذ مثلاً حرف الـ u في الكلمات الثانية : Cure, Cup, Superior, Burst فهو يقرأ (يو) في الأولى و (أ) مفخمة في الثانية و (أو) في الثالثة و (e) الفرنسية في الرابعة . أي ان هذا الحرف يلفظ بأشكال أربعة يختلف أحدها عن الآخر اختلافاً بيناً . أو خذ الحروف ough في الكلمات Through, Borough, Rough فهي تلفظ (أو) في الأولى و (ر) في الثانية و (ف) في الثالثة . وعلى ذكر صوت الفاء فهناك ثلاث طرق لتدوينه في اللغة الانكليزية تتجلى في الكلمات Form, Philosophy, Rough . والحرف الثاء أيضاً أربعة أصوات تظهر في الكلمات Turn, Action, Nature, Bottle . أما الحروف التي تكتب ولا تلفظ فحدث عنها ولا حرج . ومثل هذا الشذوذ عن الأصول الصوتية كثير تجده في اللغة الانكليزية أينما تلفتَّ ؟ بل هو القاعدة ، والانتظام الصوتي للكلمات والحروف هو الشاذ ، حتى اشتهرت اللغة الانكليزية بذلك ، وحتى أصبح تعلم الاملاء والهجاء الانكليزيين من الأمور العجيبة . وعلى الطالب المتكلم باللغة الانكليزية أن يتخبط في هذه التاهة سنوات ليتمكن من تعلم املاء كلمات لغته ولفظها . وأصبح الاملاء الانكليزي من المواضيع المهمة التي تدرس في المدارس مع ان الاملاء العربي عندنا يعتبر في التدريس أمراً ثانوياً . وهذا الخلل الصوتي في الانكليزية موجود بدرجة أقل في اللغة الافرنسية ، ولكن وجوده لا يستهان به ولولا خشية الاطالة لجئنا بأمثلة عليه .

٤ — الفرق في النشأة بين الخط العربي والخط اللاتيني

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن العلة في أن الحروف العربية صوتية في الغالب وعن تطرق الخلل من الوجهة الصوتية في كتابة اللغات الاوربية . ولكي نجيب عن هذا السؤال علينا أن نرجع إلى تاريخ نشوء الخط . ولعلّ الجواب الذي نتوصل اليه يعطينا فكرة أساسية عن طبيعة الخط العربي تفيدنا في معالجتنا المشكلة التي نحن بصددها .

كان الفينيقيون أول من وضع حروف الهجاء ونشرها في أنحاء العالم المتمدن المعروف إذ ذاك . ويظهر انهم اقتبسوها عن الكتابة المصرية ، إلاّ أنهم وضعوها على أساس صوتي ، بأن جعلوا لكل صوت حرفاً خاصاً به . والفينيقيون قوم من الساميين كانوا أكبر تجار عصرهم ، يتنقلون ببضائع بين الشرق والغرب ، وكانوا يحتاجون إلى طريقة سهلة مختصرة للسجل معاملاتهم التجارية فاخترعوا حروف الهجاء لهذا الغرض . وأخذ الآراميون الكتابة عن الفينيقيين ، وأخذ النبطيون وهم قوم من العرب كانوا نازلين في وادي موسى والبطراء ، بين التاريخين الميلادي والهجري ، الكتابة عن الآراميين . وتدل البحوث التي قام بها العلماء عن الخط العربي ومقارنة الخطوط العربية القديمة بالخط النبطي ، ان الخط العربي الشائع اليوم أخذ من الخط النبطي ونما وتطوّر ، حتى أصبح بالصورة التي نعرفها اليوم .

ان اللغات الفينيقية والآرمية والنبطية والعربية لغات سامية قريبة احداها من الاخرى وترجع إلى أصل واحد . وان شئت فقل انها لهجات من لغة واحدة تختلف في بعدها عن الأصل ، منها القريبة ومنها البعيدة . يدلك على ذلك ان الافعال الأساسية فيها ثلاثية كما في اللغة العربية ، تشتق منها بقية الصيغ ، وان جانباً كبيراً من مفرداتها مشترك مع تحريف بسيط ، وان معظم أصواتها مشترك أيضاً . فلما وضع الفينيقيون الالفباء ، جاءت حروفهم صوتية منطبقة على لغتهم اشد الانطباق . ولما كانت اللغات السامية الاخرى التي اقتبست خطها منهم قريبة من الفينيقية ، لم تجد في هذا الاقتباس كبير عناء ، ولم تجد ضرورة الى إجراء كثير من التبديل والحذف او الاضافة أو تركيب حرفين أو أكثر للدلالة على صوت واحد ، كما نراه في اللغات الاوربية . بل اننا نجد ان أحرف «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت» هي هي في الآرمية وفي العربية ، وقد زادت العربية عليها أحرف « ثخذ ، ضظغ » . ونجد أن كل اللغات السامية التي تكتب بالحروف الأبجدية تشترك في صفة واحدة ، هي اهمال الحركات وكتابة الاحرف الصحيحة فقط مع حروف المد كما نفعل نحن في اللغة العربية . وصفوة القول ، إن الخط الهجائي نشأ على أساس لغة سامية ، وانتشر منها إلى قريباتها ، وتطوّر

تقتضي تطوّر هذه اللغات حتى وجد الخط العربي وهو من أحدث الخطوط في اللغات السامية ، إن لم يكن أحدثها . فالخط عندنا اذاً مستمد من طبيعة اللغة ، متصل بها اتصالاً وثيقاً ، مطابق لها مطابقة صوتية كبيرة بحكم نشأته التاريخية . وهذه حقيقة لا ينتبه اليها دعاة الأخذ بالخط اللاتيني .

وليس هذا حظ الخطوط اللاتينية . فان الفينيقيين في أسفارهم في البحر المتوسط أعطوا خطهم الى اليونان ، وهؤلاء أعطوه الى الرومان اللاتينيين ، ومن الخط اللاتيني استمدت الأمم الأوربية الحديثة حروف هجائها . على أن اللغات الأوربية ليست سامية بل هي طائفة من اللغات قائمة بذاتها ، تختلف اختلافاً عظيماً في مفرداتها وتراكيبها وأصولها اللغوية عن اللغات السامية ، كما تختلف عنها أيضاً في عدد غير قليل من أصواتها . ففي اللغات السامية أصوات غير موجودة في اللغات الأوربية . وفي هذه أصوات تزيد على أصوات اللغات السامية ، ولم يكن الفينيقيون بالطبع قد وضعوا لها رموزاً وحروفاً ، فاضطر الأوربيون إذاً ، إمّا أن يضعوا لها حروفاً جديدة ، أو أن يعطوا للحرف الواحد أكثر من صوت واحد ، أو أن يؤلفوا حرفين وثلاثة للرمز عن صوت واحد ، كما تفعل الانكليزية للرمز عن (چ — ch) و (ش — sh) و (ث و ذ — th) وهذان الحرفان الأخيران ، يرمزان كما ترى إلى صوتين ، هما الثاء والذال .

هذا على ما نرى هو السبب الأساسي الأصيل في تطرق الخلل من الناحية الصوتية الى بعض خطوط اللغات الأوربية . فاذا كانت الحروف العربية وحروف اللغات السامية ، منطبقة على لغاتها وأصواتها أشد الانطباق ، لأنها نشأت ونمت مع هذه اللغات وهي مستمدة من طبيعتها ملازمة لها ، فان اختلال الخطوط الأوربية ، وبالأخص الحديثة منها بعض الاختلال ، يعود الى أن الخط الهجائي ليس أصيلاً فيها ، بل هو دخيل عليها ، نشأ في لغة أجنبية بعيدة عنها . والفرق بين الخط العربي والخطوط الهجائية السامية من جهة ، وبين الخطوط الأوربية من الجهة الأخرى ، هو كالفرق بين الأصيل والتقليد . وإذا كانت الخطوط الأوربية بعد تطور ما يزيد على الألفي سنة ، أصبحت تسد حاجات اللغات الأوربية ، فليس ذلك دليلاً على إنها صالحة للغتنا . ومن صعب عليه تصديق ذلك ، فلينظر الى محاولات المستشرقين كتابة الكلمات العربية بحروف أوربية ، وليشاهد مقدار النقط والخطوط والعلامات التي يضطرون الى اضافتها للرمز إلى الكلمات العربية ، وليرى كيف أن الكلمة التي تكتب عندنا بثلاثة حروف ، تكتب عندهم بخمسة أو ستة ، وكيف انه تصعب عليه قراءتها ، مهما كان بارعاً في قراءة الرموز اللاتينية .

قيود

قضى زماني عليَّ أني أمشي ورجلاي في القيودْ
حال بها في خطاي بغشي ذل الأسير الخطى المقودْ
ويلاه مما لقيت منها ويلاه للسيِّد المسودْ
إبليس لو ذاقها قديمًا لما عصى الأمر بالسجودْ

* * *

ظلمٌ، ولكن أنَّى قضاني! أو أين لي فيه بالشهودْ؟
من مثله لم يزل لعيسى دم على مذبح اليهودْ
يا رب فيم الوجود إذ لم تمنحه حرية الوجودْ؟
وأينما صالح يولِّي وجهًا، فلا بُدَّ من ثمودْ

* * *

يا زمني فيك وجه عادٍ فهل ترى فيَّ وجه هودْ
أبشر وثق بي فلا نبيٌّ يبعثه الله للقرودْ

محمود أبو الرفا

تحقيق لغوي

في مادة (تلمذ)

بقلم عبد العموم محمد شاهين

لعلَّ كلمة « تلميذ » من أكثر الكلمات دوراناً في دور العلم ومعاهد الدراسة، وهي من الكلمات التاريخية التي دخلت في أطوار مختلفة من الدلالة حتى استقرت الآن في معنى طالب العلم . بيد أن تأصيل هذه الكلمة وبيان مشتقاتها وجموعها يحتاج إلى توضيح وتوقيف . وقد كنت قديماً عزمت أن أكتب فيها تحقيقاً شاملاً ، ولكني وجدت رسالة البغدادي في هذا التحقيق من أوفى ما كتب في هذه الناحية ، فآثرت أن أجعلها تحفة للأدباء من قراء « المقتطف » تعميماً عن التطلع إلى ما وراءها .

والبغدادي هو عبد القادر بن عمر البغدادي ، صاحب خزانة الأدب ، المولود في بغداد سنة ١٠٣٠ والمتوفى بمصر سنة ١٠٩٣

ورسالته تلك التي ننشرها ، منها نسخة بالخزانة التيمورية ، وثلاث أخرى بخزانة دار الكتب المصرية ، إحداها برقم ٦ مجاميع ش والثانية برقم ١٨١ مجاميع ، والثالثة برقم ١٢٢ مجاميع . وقد قابلت النسخ الثلاث الأخيرة بعضها ببعض ، ورمزت إليها بالرموز أ ، ب ، حـ على ترتيبها . وأصح هذه النسخ وأكملها نسخة ب . وكل ما أثبته بين علامتي الزيادة فهو منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فهذه كلمات ذكرتها لمعنى التلميذ ، فإني لم أجد هذه الكلمة مذكورة في كتب اللغة المتداولة ، المدوَّنة [لبيان] الجليل والحقير ، وذكر النقير والقِطْمير ، كالجمهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهري ، والمحكم لابن سيده ، والعباب للصاغاني ، والقاموس

لمجد الدين الفيروزابادي ، وغيرها ، إلاّ في لسان العرب لابن مكرم ، فإنه أورده في مادة (تلمذ) وقال : « التلاميذ الخدم والأتباع ، وأحدهم التلميذ » مع أنها كلمة متداولة بين العام والخاص . وكثيرة الاستعمال في تآليف العلماء الأعلام .

وكان الباعث لهذا أني لما قرأت كتاب منتهى الطيب ، ووصلت إلى قوله في الباب الخامس «حكى لي أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت الفصل » [1] رأيت شارحه الفاضل إبراهيم بن اللاّ الحلبي [2] قال : « التلميذ القارئ على الشيخ . ولم أقف عليه في شيء من كتب اللغة المتداولة كالصحاح والقاموس وغيرهما » . اهـ

فينئذ تلبعت بطون الدفاتر ، من مصنفات الأوائل والأواخر ، حتى رأيته في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، فإنه ساق [3] فيه شعراً للبيد بن ربيعة العامري الصحابي ، وفيه هذا البيت :

فالماء يجلو متونهنّ كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا [4]

وقال بعد إنشاد الأبيات : « التلاميذ غلمان الصنّاع . والقَشِب والقشيب الجديد . والجمع القُشُب »

ورأيته أيضاً في شعر أمية بن أبي الصلت ، وهو شاعر أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يوفق للإيمان به . وغالب شعره في الوعظ وتذكير الآخرة وقصص الأنبياء ، وهو مما لا يكاد يقضي العجب منه . قال في قصيدة :

والأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقامتنا وفيها نولدُ
وبها تلاميذ على فتراتها حبسوا قياماً كالقرائص تُرعَدُ [5]

قال شارح ديوانه : « التلاميذ الخدم ، يعني الملائكة » .

وقال أيضاً في قصيدة أخرى

صاغ السماء فلم يخفض مراصعها لم يفتقص حلَق جوف ولا هرمُ
لا كشّفت مرة عنا ولا بلبت فيها تلاميذ في أقفائهم دعمُ

---

(١) الفصل المختص في النحو . انظر شرح ابن يعيش (٢ : ٩٤) . والبيت هو :

لا يبعد الله الثلاثين والمئا وإن أتى قال الخميس : نعم

(٢) هو إبراهيم بن اللاّ محمد الحلبي المتوفى سنة ٩٧٩ ، ذكره في كشف الظنون . وفي ا ، حـ : «حلي» ووضع : « الحلي » تحريف .

(٣) ا ، حـ : « ساق » والصواب في ب .

(٤) البيت في ديوانه ص ١٤١ بشرح الطوسي . وفيه : « التلاميذ غلمان الصاغة ... التلاميذ فارسي » .

(٥) القرائص : جمع قرصة ، بالضم ، وهي الناقة .

وقال شارحه هنا أيضاً كذلك .

ورأيت في المقامة الأولى من المقامات الحريرية قوله : « فوجدته محاذياً لتلميذ ، على خبز حميذ ، وجدي حنيذ ، وقهوتهما خابية نبيذ [1] » . قال شارحه الشريشي : « التلميذ متعلم الصنعة ، والتلميذ الخادم ، والجميع التلاميذ » . وأنشد بيت لبيد المتقدم ، ثم قال : « وطلبة العلم تلاميذ شيخهم » . اه

وإهمال داله لغة فيه ، قال أمية بن أبي الصلت في القصيدة الدالية التي تقدم إنشاد بيتين منها :

قضى وأصعد واستبدّ إقامةً بأول قرّى فيتّل ومُتلمَدُ

قال شارحه : « يريد متلمَذ ، أي خادم من التلاميذ . وتُلميذ جُعل للخدمة . ويروى متلمِد بكسر الميم . وأراد بأول قرى الملائكة الذين يحملون العرش . وقوله : قضى يعني الله عزّ وجل . واستبدّ ، يعني لا يستشير أحداً . يقال استبدّ فلان برأيه إذا لم يستعن أحداً على ما يريد . والمبتّل المفرد » . انتهى .

ويؤخذ منه أن تاءه أصلية . ووزن تلميذ فِعْليل ، وأن له فعلاً متصرفاً هو تلمذه كدحرجه ، بمعنى خدمه ، يتلمذه كيدحرجه ، تلمذة وتلماذا ، كدَحْرَجةً ودَحْراجاً ، فهو متلمذ كمُتدَحْرِج بمعنى خادم ، وذاك متلمَذ أي جعل خادماً [2] . وإطلاق التلميذ على المتعلم صنعة أو قراءة ، لأنه في الغالب يخدم أستاذه .

وقول الناس : « تلمَّذ له » و « تلمَّذ منه » بتشديد الميم ، خطأ ، لأنهم توهموا أن الياء زائدة ، وليس كذلك ، وصوابه « تلمَذ له » و « تلمذ منه [3] » بالذال المعجمة .

ولمَّظه أي أطعمه وأذاقه . والتلمظ : تتبع اللسان بقية الطعام في الفم . وقد يكنى به عن الأكل ، استعير للتعليم شيئاً فشيئاً .

والتلميذ يجمع على تلاميذ ، فإن فِعْليلاً يجمع على فَعَالِيل ، كبرطيل وبراطيل ، وعفريت وعفاريت ، وقنديل وقناديل ، وإصليت وإصاليت ، وإبريق وأباريق ، ومنشديل ومناديل .

---

(١) هذا سهو من البغدادي ، فإن الشريشي في هذا الموضع لم يقل إلا : « تلميذ : متعلم الصنعة » انظر الشريشي (١ : ٢٩ س ١) وأما الكلام الذي نقله البغدادي بعد فهو تعليق على قول ابن الحريري : « فالتفت إلى تلميذه وقلت عزمت عليك بمن تستدعيه الإذعان لتخبرني من ذا » انظر الشريشي (١ : ٣٠) .

(٢) الأولى من تلمذه بمعنى خدمه ، والأخيرة من تلمذه أي جعله خادماً .

(٣) هذه فتوى لغوية للبغدادي ولم يستعمل هذا التعبير ، ولا أظنه سائغاً .

وأما قولهم في جمعه « تلامذة » فعلى توهم أنه اسم أعجمي [١] ، فإن الهاء في الجمع تكون في أحد ثلاثة مواضع : (أحدها) الاسم الأعجمي المعرب ، سواء كانت للتعويض عن مدّه [٢] نحو أستاذ وأساتذة ، أم لا نحو موزج وموازجة وكيلجه وكيالجة . (ثانيها) للتعويض عن ياء النسب في المفرد ، نحو أشعثي وأشاعثة ، ومهلبي ومهالبة ، وأدرقي وأزارقة (ثالثها) للتعويض [إما] عن ألف خامسة جوازاً نحو حنطي وحبائطة ، وعفرني وعفارنة وإما عن [عين] [٣] مضاعفة نحو جبار وجبابرة . وفي غير هذه المواضع الثلاثة قليل نادر كفحولة وحجارة .

قيل [٤] : وقد يرخم التلاميذ في الشعر على تلام ، كقول الطرماح :

تشقى الشمس بمدريّةٍ كالخاليج بأيدي التلام

والخاليج : منافخ الصاغة الطوال ، واحدها خلوج ، شبه قرن البقرة الوحشية بها .

قال الجواليقي في المعرّبات [٥] : « التلام أعجمي [٦] معرب ، قيل هم الصاغة ، وقيل غلمان الصاغة ، وقيل هم التلاميذ » وأنشد هذا البيت .

وأنشد ابن بري في حاشية الصحاح قول فيلان بن سلمة الثقفي [٧] أيضاً :

ومرمال مضاعفة دلاص قد أحرز نسجها صُنعُ التلام

وروى : « التلام » في البيتين بفتح التاء وكسرها . أما الفتح فعلى أنه صيغ التلاميذ ضرورة . وقد اقتصر عليه صاحب الصحاح ، وقال : « التلام التلاميذ سقطت منه الذال » .

وصاحب الصحاح تابع في هذا لأبي علي ، قال في المسائل العسكرية [٨] : « ومن قبيح الضرورة قول الشاعر :

مثل الخاليج بأيدي التلام

قالوا : يريد التلامذة ، فحذف . وقد أعلمتك أن ذلك لا يكون على الترخيم فيما تقدم . إلاّ أنه قد جاء من هذا النحو ما لا يكون في الترخيم كقوله [٩] :

دَرَسَ المَنَا بمتالع فأبانِ

---

(١) كأن البغدادي يذهب إلى أنه عربي (٢) ا ، حـ : « مدة » (٣) كتبت كذا « عين » في ا ، حـ لكن جعل فوقها خطأ علامة على الخطأ . وإثباتها عين الصواب كما في ب .

(٤) ا ، حـ : « قيل » وذلك على أنها متصلة بكلمة « معاورة » ، لوجه ما أثبت من ب كما يفهم من البيان . (٥) المعرب للجواليقي طبع دار الكتب ص ٩١ (٦) ا ، حـ : « قيل معرب » وكلمة « قيل » ناقصة (٧) شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام . ترجمته في الإصابة ٦٩١٨ والأغاني (١٢ : ٤٣ — ٤٤) (٨) المسائل العسكرية لأبي علي الفارسي الذي توفي سنة ٣٧٧ نقل عنه البغدادي نصوصاً فيما يأتي من مواضع شتى من الخزانة . انظر ١ : ٩٠ ، ٩١ ؛ ٢ : ٦٢ ، ٢٧٥ ؛ ٤ : ٥٢٢ ، ٥٢٣ ؛ ٣ : ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧٣ ؛ ٥٨٢ : ٥٨٣ . ا ، حـ : « مسائل العسكرية » تحريف .

(٩) هو لبيد بن ربيعة . والبيت مطلع قصيدة له في ديوانه ص ٦١ طبع فيينا سنة ١٨٨٠

قالوا : يريد : المنازل . ومثل ذلك ما أنشدوه لأبي دُواد [1] الإيادي :

فكأنما تُذكي سنابكها حُبَا [2]

قيل يريد الحباحب ، أي نار الحباحب . وفي التنزيل : فالموريات قدحاً » انتهى كلامه

وأما الكسر فعلى أنه جمع « تلم » بكسر فسكون ، بمعنى الغلام . قال ابن مكرم [3] : فمن [4] رواه : التلامي ، بفتح التاء وإثبات الياء ، أراد التلاميذ ، يعني تلاميذ الصاغة . هكذا رواه أبو عمرو ، وقال : حذف الذال من آخرها [5] ومن رواه : التلام ، بكسر التاء ، فإن أبا سعيد قال : التلم الغلام . قال : وكل غلام تلم ، تليداً كان أو غير تليد . والجميع [6] التلام . وقال ابن الأعرابي : التلام الصاغة ، والتلام الأكرة » . انتهى

وأقول : « الصاغة » تصحيف من الصناع [7] لوقوعه في صحبه الحاليج : ويدفعه البيت الثاني [8] .

وقال صاحب القاموس : « التلم ، بالكسر : الغلام ، والأكّار ، والصائغ أو منفخهُ ، الطويل [9] . والجمع تلام . وكسحاب : التلاميذ ، حذفت ذاله . ولم يذكر الجوهري غيرها ، وليس من هذه المادة [و] إنما هو من باب الذال » . انتهى

أقول : أما قوله : « الأكار والصائغ » فقد أخذه من قول ابن الأعرابي ، على أن الصاغة والأكرة بالتحريك جمع صائغ وأكّار .

وأما قوله : « أو منفخه [10] » فقد أخذه من قول بعضهم ، وقد غلط فيه .

نقل الأزهري عن الليث أن بعضهم قال : التلام الحاليج التي ينفخ بها . قال : وهذا باطل [11]

والعجب من صاحب القاموس ، أنه اعترض على صاحب الصحاح في ذكره التلام في باب الميم ، مع أنه أثبته مثله ، ولم يذكره في باب الذال .

عبد السلام محمد هارون

---

(١) [، حـ : « أبو دؤاد » بالهمز (٢) روي البيت في اللسان (١١ : ٢٨٨) هكذا :

يغدون جندل طائر جنوبها فكأنما تذكي سنابكها الحبا

(٣) في لسان العرب مادة (تلم) (٤) في الأصل : « ومن » وسواب النص من اللسان .

(٥) أسقط البغدادي هنا قول ابن منظور : « كقول الآخر :

لها أشاوير من لحم تمرره من الثعالي ووخز من أرانيها

زاد من الذال » ومن أرانيها » وهذا البيت لابن كامل البشكري كما في اللسان (٥ : ١٦١) (١٦١ في الأصل : « والجمع » وأثبت ما في اللسان .

(٧) حـ فقط : « في الصنع » (٨) ينظر إلى بيت غيلان بن سلمة . [، حـ « في » بكان : « وبدفعه » شرقه (٩) [، حـ « والصائغ » بالنون و « منفخة الطويل » سوابها ما أثبت من ب . (١٠) [، حـ : « أو منفخة » تحرف . (١١) في اللسان : « قال ابن منصور — وهو الأزهري — قال الليث : إن بعضهم قال : التلام الحاليج التي ينفخ بها . قال : وهذا باطل ما قاله أحد » .

الخطايا العشر

هناك عشر خطايا اجتماعية يقضي علينا أن نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا أبطأنا نحن الى السلام ، واذا أخذنا نحن الى الدماء والحرق والدموع

العالم في مخاض . أما ما ستلد الأيام فذلك سرٌّ مُغَيَّب في جوف المستقبل . يشعر الناس شعوراً خفيًّا بأن من وراء المظاهر المدنية القائمة داءً دفين ينخر في نظام الجماعات ، ويفكك من تماسكها ، ويحلل من روابطها التي أُضفت عليها التقاليد ثوباً من القداسة ، تلك القداسة التي عملت في أسسها العتيقة معاول التطور الانساني .

لو أن الانسانية استطاعت أن تساير الخطى التطورية التي سار فيها العقل ومضى فيها العلم ، ولم تقف عند الحد الذي أراد السياسيون وقادة الأمم من محترفي الحكم ان تقف عنده ، إذاً لكان شعورنا بما ينتظر الجماعات من مشكلات المستقبل القريب أميل الى التفاؤل . ولكن العقل الفردي والعلم ، وهما من الخصائص الفردية ، قد سارا بخطى واسعة لم تستطع الجماعات أن تتابعها ، والجماعات هي ما نعلم تكويناً وفطرة ، فعقليتها أقل تقبلا للتجديد وأعصى على فهم الحقائق وأعسر انقياداً وأقل ليناً ، وأبعد عن مرونة الأخذ والعطاء

لهذا سارت الجماعات تنحط في ليل مدلهم من الرغبات المكبوتة والآمال المقموعة والشعور بالحاجة الى التغير ، ومسايرة خطى العقل الفردي . فاذا همت بالمسير عاقها الفقر وسدَّ طريقها الظلم ، وقامت ميول أهل السلطة ترد الجماعات عن التطور خشية أن يبدل التطور نظام الجماعات ، فتزيح من طريقها تلك السدود التي تستند اليها سلطة ذوي السلطة من السياسيين والانتهازيين والدكتاتوريين ومن انضم لهم من أصحاب المصالح المادية التي لا يتحقق لها وجود ، الا وعلى عين الجماعة قناع من الأوهام والخيالات ، وفي قدميها أغلال من الزيف والفوضى .

لا سلطان لأهل السلطة على العقل الفردي . فالعقل الفردي طليق . يفكر كيف يشاء

ويسبح في مفاوز الكون ، ويتبرأ من رحاب الوجود أي متبوإ أراد . انطلق العقل الفردي منذ أقدم الأزمان يعمل في ظلال الغابات وفي رؤوس الجبال وفي الصحاري والوهاد والبسابس الملس والفاوز الخشنة ، وفي الدير والمسجد ، وفي المدرسة والجامعة . وتابعه العلم والفلسفة والفن . فطار الانسان بعقله وما فُتِّق له عنه من فنون المعرفة وضروب الصناعة ، في آفاق بعيدة قصية ، وتطلع من ورائه بعين الفرد الحر الطليق ، فاذا به يرى الجماعات ما تزال واقفة في أول الطريق وقد تراكمت أمامها الصعاب والمشكلات ، ووقفت أوهام العقلية الضّمامية تذودها عن السير في طريق الارتقاء ، كما وقف في طريقه الظلم والشهوات والبغض والانانية ورذائل الخلق والمطامع الأشعبية ، يؤيدها في ذلك ما سببت من فقر وجوع وجهل وحروب وثورات .

وفي الحق ان الجماعات عاجزة عن التفكير لذاتها . فالجماعة تفكر بعقل الفرد . وعقل الفرد يحاول دائماً أن يجذب الجماعة الى أعلا ، وينهض بها الى المساوات التي ارتفع اليها . ولكن العقلية الضمامية تسد عليه الطريق وتقعد عليه جهده ، كلما عمل على رفع مستوى الانسانية . فالواجب الأول على العقل الفردي أن يعمل على قتل أوهام العقلية الضمامية أول شيء ، هذا إذا أراد أن يكون لجهده أثر مرموق في نظام الجماعات .

ولذا كان للعقلية الضمامية أوهام عاقت الجماعات عن الانطلاق في سبيل التطور ، فان هذه الاوهام قد أدّت بدورها الى خطايا خلقية ، عمل السياسيون ومن اليهم على تغذيتها وتنميتها لتظل غُلاً في عنق الجماعات يعوقها عن التعليق في آفاق الحرية الواسعة فتتقارب وجهات النظر بين الأمم وتحترم المصالح والمبادىء القدسية التي لا ينبغي أن يكون للاجتماع الانساني غيرها أساساً ودعامة : مبادىء السلام والحرية والاخاء والمساواة في الحقوق وحق الاختيار في نظام الحكم الذي يوافق مزاج كل أمة من الأمم .

هذه الخطايا العشر التي عاشت الجماعات في أسرها طوال القرون السالفة وكانت غراس الأوهام التي تمكنت من العقلية الضّمامية ، منها ما يتعلق بالنظام المدني الذي نعيش في كنفه ، ومنها ما يتعلق بالخلق الاجتماعي ، الذي كان وما يزال طابع الأمم والجماعات .

الخطيئة الاولى : أسلوب التناول

فان وجهة النظر تختلف اختلافاً كبيراً عند الأمم وعند الأفراد . فهنالك نظرة جزئية تريك من الشيء جزؤه ، وهنالك نظرة كلية تريك من الشيء اجزاؤه مفردة ومجتمعة .

ولقد عمل السياسيون وزعماء الأمم جميعاً على أن يوجهوا الشعوب الى الأخذ بوجهة النظر الجزئي في كل ما يتعلق بالسياسة والعلاقات التي ينبغي أن تقوم بين الأمم. ذلك أنّ النظرة الكلية في أمور السياسة والاجتماع إذا تمكنت من عقلية الشعوب سادت فكرة السلام حتماً، وتقاربت الأمم وعرفت للصالح واحترمت الحريات وساد الاخاء وتقيّدت الإرادات الاجتماعية بالقطع في أمور الدول، ومال محور السياسة نحو العمل على التقريب بين الشعوب والاعتراف بحقوقها في الحياة الحرة المنتجة. وعلى العكس من ذلك ساوت سياسة الانتهازيين والوصوليين من قادة الأمم، جرّوا على المجتمع الانساني ما نرى من كوارث الحرب والثورات. هذا بالرغم مما تغنى به السياسيون طوال عصور، من حديثهم على خير الانسانية. ولكن السياسيين بحكم صناعتهم، كالشعراء، يقولون ما لا يفعلون، ويتظاهرون بما لا يعتقدون.

الخطيئة الثانية: تأثر الفكر الفردي بنقائصه دون كمالاته

من نقائص الفكر الفردي تأثره الى حدّ ما بالظلامية الفكرية، فيقف إزاء بعض الحقائق المتعلقة بتطور الجماعات جامداً لا يتحرك، وتفقد فيه قوة الابتكار والقدرة على مواجهة الحقائق، وإن أدرك أنها كائنة. ويرجع السبب في ذلك الى أنّ فكر الفرد قد يتأثر من طريق العجز عن مواجهة الحقائق والاعتراف بها، فيختفي مواجهة الجماهير بما يتصل بأسباب كثيرة من مقومات حياتها ومسببات رقيها وركودها، فيكون عاملاً من عوامل التوقف من مسايرة خطى التطور الطبيعي. وقد يعود أكثر السبب في ذلك الى ما تحوط به الجماعات تقاليدها ومعتقداتها من صنوف القداسات، التي لا أصل لها إلاّ أن القِدَم قد أضفى عليها تلك الصفات.

ولقد أشار الى ذلك الأستاذ فرنسيس كارل في كتابه «الانسان: ذلك المجهول»، حيث أبان أن العلوم قد تقدمت انسان الطبقة الوسطى وفاقت كل العلوم مداركه، ولم يبق فيها ثابتاً غير متقدم الاّ علم الانسان نفسه. فان علم الانسان ظلّ دون سواه كل العلوم كالفلك والأحياء والطبيعة والكيمياء. هذا بالرغم من درجات التقدم التي سارت فيها الانسانية. فالانسان ظلّ وما يظل جائعاً عاجزاً عن ارضاء حاجاته الأولية. وظلّ العلماء قد عجزوا عن تنظيم حياة الانسان بنفس الدقة التي استطاعوها في تنظيم مجال بحوثهم العلمية. فالانسان مهما تعلّم وارتقى، تجد فيه، بالرغم من ذلك، آثاراً من حياة أسلافه الأول. حياة الوهم والأساطير والخرافات، والعجز عن إدراك الحق وإن تبلج ضوءه وسطعت شمسه.

الخطيئة الثالثة : تشابك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

تلك وراثة اجتماعية . فان الجماعات قد خرجت من خطوبها الأولى بنظام اشتركت فيه المصالح والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حتى أصبح من المتعذر على أي مصلح أن يمس ناحية منها بأي تغيير تقتضيه الظروف المحيطة بالجماعات ، من غير أن تضطره طبيعة هذا النظام أن يمس بقية النواحي . والى هذا يعزى السبب في اخفاق كل الجهود التي رمت إلى السلام ، بل إنه هدد السلام نفسه ، وكاد يحدث في العقلية البشرية نزعة إلى اليأس من أن يسود السلام أو يكون للسلام أثر في سياسة الأمم والشعوب ، أو فعل ناجع في اتجاه الدول من حيث علاقاتها بعضها ببعض .

الخطيئة الرابعة : المصلحة الذاتية

تفسيرنا المصلحة الذاتية ومركزنا الاقتصادي دائماً ، عاملاً من أهم العوامل المؤثرة في علاقة بعض الطبقات ببعض . فان صاحب العمل وحامل الأسهم والتاجر في رأس المال ، وهم من الطبقات ذوات العلاقة المباشرة بالانتاج العائد في مجموعه الى أكبر عدد من أفراد الأمة ، يغفلون دائماً عن « العامل الانساني » في حياة الجماعة ، فينظرون دائماً في كل ما يتعلق بالنظام الاجتماعي من زاوية واحدة ، زاوية المصلحة الذاتية . يفسون طوعاً أو كرهاً ، ما سيطرت عليهم قوة الأنانية ، ان المخلوقات التي تعمل في سبيل الانتاج ، انما هي مخلوقات بشرية لهم حاجات وفيهم أرواح تحس ، ولهم مشاعر تتأثر ، ولهم أسر وأولاد يحتاجون إلى التربية والتنشئة والتعليم ، ليصبحوا عوامل ذات أثر مفيد للمجتمع .

ولقد بلغ الجهل ببعض ذوي السلطان في طور مّا من أطوار التاريخ ، حد ان « العامل الانساني » فيهم قد تجرد من كل معنى مثالي . كما بلغ في حالات أخرى حداً فاضحاً من الاستهتار المؤيد بالغباء . فان الشعب الفرنسوي في ثورته المشهورة ، قد ثار جائعاً يطلب الخبز لا أكثر . فلما علمت الملكة ماري انطوانيت بسبب الثورة ، قالت اعطوهم فطيراً .

أما إذا ضعف الشعور بالأنانية ، فلا شك في أن « العامل الانساني » يتسامى وتثبت أسره ، فيُقضى من طريقه ، على كثير من مفاسد هذا المجتمع .

الخطيئة الخامسة : الشهوات الانسانية

كلنا يعرف قولة الحكيم أفلاطون المشهورة : « الشهوات تطمس الحق » . فاذا أردنا أن نرعى الحق وأن نوزع العدالة على كل الأفراد بالقسط في مجتمع مّا ، انبغى الذين في

يدع الفرد أن يتحرروا من كل الشهوات التي تصم آذانهم عن تلك الصرخات الداوية التي تخرجها حناجر المظلومين الأكولة حقوقهم المداسة أقدارهم ، وأن يعملوا دائماً على النظر في قضايا المجتمع نظرة حرّة بعيدة عن التأثر بتلك القوالب الفكرية العتيقة التي تثير الشهوات وتنشى على العقل بغشاوة الموروثات والتقاليد .

الخطيئة السادسة : ميوعة العبارات

للكلمات حدّان . وقد لا نخطىء كثيراً إذا قلنا إن للكلمات حدوداً تحرّر معانيها بطريق الاستعمال . ومن هذا الطريق ورثنا سوء الفهم من الجيل الماضي . أما وقد عرفنا أننا ورثنا ذلك الميراث الخبيث من الذين نشأوا تلك الجهالات ، فإن أول واجب على المصلح الاجتماعي أن يطلب التحديد في معنى الكلمات ، بحيث يصبح للعبارات الاجتماعية دقة المصطلحات الرياضية . ولا ريبة في أن هذا وحده ، كفيل بأن يبعد من أفق المجتمع البشري كثيراً من أسباب التناقض ، والازدحام بكثير من المعاني المتضاربة التي تخلط الذهنية العامة ، وتدفعها في طريق الثورات بغير أهداف معينة .

الخطيئة السابعة : التخليط في تعيين المشكلات الاجتماعية

وهذا سبب من أخطر الأسباب التي تقود إلى الفوضى . ولاشك عندي أن التخليط في تعيين كل مشكل اجتماعي باعتباره وحدة لها قوام ذاتي ، بصرف النظر عن علاقته بغيره من نواحي النظام السياسيّ ، كان السبب في نشوء تلك النزعات المتطرفة وأخصها العَدَميّة والفَوْضَويّة وما اليها من نزعات الهدم والتخريب . فان العقل الانساني بطبعه إذا صلّ وتاه وتخالطت تواه الفرقة بين المعقولات ، خبلت قوته ، وتسلل زمام النفس البشرية غيره من القوى الدُّنيا ، فينزع الانسان بطبعه وبحكم ذلك الظرف ، إلى تحطيم كل وَلاية من الوَلايات الاجتماعية ، وأولها وَلاية التشريع ، إذ ينسب اليها القوة التي تتذرع بها وَلاية التنفيذ وحفظ النظام . ولا شك في أن ترك الذهنية العامة نهباً لهذا التخليط ، خطيئة من أعظم الخطايا التي يرتكبها أهل هذا الزمان .

الخطيئة الثامنة : المساومة

أول ما يفد إلى ذهنك من الخواطر إذا ذكرت معنى المساومة في سياسة الاصلاح الاجتماعي ، ان هذا النمط من التفكير ينسبك أول ما ينسبك : « فضائل السلام » .

إذا جدَّت مشكلة من مشاكل السياسة ، أو تكوَّنت نزعة اجتماعية من النزعات التي كثيراً ما يقتضيها التطور الدائم ، ونزعت السلطات إلى حلها بطريق المساومة ، فاعلم علم اليقين الثابت في يقينه ، ان حاجة السلام قد ضحي بها في سبيل الوصول الى حلول موقوتة تسكن لوعة الداء ، ولكنها لا تستأصله . واعلم فوق ذلك ان كل الدماء المهراقة في الحروب ، وكل الخبائث التي لازمت قيام الثورات والانقلابات الاجتماعية ، كان هذا سببها : مساومة تنسيك فضائل السلام . وما ذلك إلا العمل العائل . عمل لما هو زائل ، ونقض لما هو باقٍ ثابت .

الخطيئة التاسعة : روح التفرقة

أصحاب المصالح في العالم فريقان : دول ذوات مصالح عامة ، وأفراد ذوو مصالح ذاتية . فاذا ظلَّ هؤلاء مستمسكين كلا بمركزه ، فتشددت الدول الاحتفاظ بمركزها في التفوق حتى الدرجة التي يصبح فيها ذلك التفوق غير ضروري للاحتفاظ ببقائها ، وسعى الأفراد الى الاستقراء على الطبقات المستغلَّة في المجتمع ، وقفنا حيث نحن ، شاعرين بأن بعض الدول لا بد من أن تتسمح في شيء من تفوقها اقتصاديًّا أو سياسيًّا أو غير ذلك ، وان بعض الأفراد لا بد لهم من أن يذعنوا الى ضرورة التنازل عن شيء من امتيازاتهم . وانه فلا بد من تضحية ، ليتزن بناء المجتمع .

الخطيئة العاشرة : اختلال القوالب الاقتصادية والسياسية

والسبب في هذا الاختلال عجز الأفراد والجماعات عن النظر في الحياة الجديدة نظرة دولية ، تختلف كل الاختلاف عن النظرة القديمة التي تتشاءم اليوم . لقد انقلبت الحال فتطوَّرت الحياة وتغيرت قِيَمُها . فكل القِيَم القومية القديمة قد جعلت محلها قِيَمٌ دولية شعوبية جديدة . ولقد تم هذا التطور لاشعوريًّا ، حتى أن الناس اليوم يعيشون في نظام دولي ، ولكنهم يفكرون بذهن قومي . وإذن ينبغي لنا أن نعمل على أن نقضي على ناحية التفكير القومي ليسار الفكر ، الذي هو العامل الأول في تنشئة النظامات الاجتماعية ، مقتضى الحال في الحياة الدولية التي نحياها .

***

هذه خطيئات عشر ، يلزمنا أن نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا قضينا عليها فنحن الى السلام ، وإذا عجزنا عن ذلك ، فنحن الى الفوضى ، بل الى الحميض ، الى الدماء والعرق والدموع .

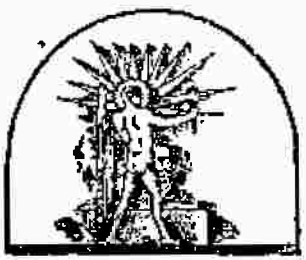

الاتحاد القومي

داؤه ودواؤه [1]

للدكتور سركيس
عضو المجمع العلمي العربي

أصبحت بلاد سورية ولبنان في طور عهدٍ جديد هو عهد الاستقلال والتمتع بالكرامة القومية في أوسع مداها. وما عهد الدول لنا بهذا الشأن كافياً وافياً، وإن كان عظيم الفائدة. بل يجب علينا أن نضيف الى هذا السند الرسمي مساعي فعالة طيبة من قبلنا، تظهر اننا نفكر في واجباتنا ومسؤولياتنا تجاه هذا الاستقلال، قبل أن نفكر في مغانمنا وأمانينا الذهبية من ورائه، بحيث نكون مستحقين له ولحسن عناية الدول ورعايتها حين تضع تفاصيل الميثاق الاطلنطي، وفي مقدمة أغراضه تأييد الشعوب الصغيرة ومنح كل منها حقوقها السياسية.

فما الشرط الأساسي الذي يطلب منا لنيل ذلك. هو ولا شك اتحادنا كتلة قوية صادقة في نياتها ومساعيها ومقاصدها. وما الذي يحول دون اعتمادنا على هذه الصفة الشريفة. هو ولا شك وجود النعرات الدينية في صميم مجتمعنا، وترصد النصارى والمسلمين بعضهم لبعض، بتأييد هذه النعرات الخبيثة.

ومن ثمّ يكون زوال النعرات الدينية من بيننا أعظم ضامن لنجاحنا سياسيًّا وإداريًّا واجتماعيًّا، وأصدق كفيل لسلامة استقلالنا وراحة بالنا وكرامة نفوسنا وصون نفائسنا.

وإذا لم تزل من بيننا هذه النعرات الخبيثة فلا تكون الوحدة العربية اذا حزناها، ونحن اليوم نعوّل عليها ونسعى اليها ونفتخر بها، إلاّ صئيلة الجدوى إذ لم أقل معدومة الجدوى، وما أشبهها بصَرح جميل فخم ولكنه ذو أساس ضعيف تغير عليه من هذه الزاوية ومن تلك، مسارب مياه قوية التيار، تحتفر الأخاديد في طريقها وتهدد الصَرح بالتصدع فالانهيار بين ساعة وساعة، والعياذ بالله.

(١) محاضرة ألقيت في ردهة المدرسة التجهيزية الرسمية بالاشرفية في ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٤

ولا تنسوا أن أول واجب يطالب به الكاتب أو الخطيب أن يكون مدفوعاً بعامل الاخلاص والحمية قصد الافادة والارشاد، لا قصد الاغراب والمباهاة، بحيث يرضي ضميره أول شيء. ورحم الله من قال: أخوك من صدّقك، لا من صدّقك.

النعرات الدينية تحقرنا أمام الناس وأمام أنفسنا كلما فكرنا في قبح مدلولها. النعرات الدينية تجعلنا مطمعاً لكل طامع وحجة دامغة علينا لكل محتج وتكذبنا جهاراً في كل صيحة من صيحاتنا الوطنية وكل دعوى من دعواتنا القومية. وهذه النعرات لم يقتصر أمرها على الشعب في خصوصياته وفي دخائل كل فرد من أفراده، بل تعدت ذلك الى ما يخزي ويخذل. فأصبح لها أثر رسمي قانوني في انتخاباتنا ووظائفنا ودعواتنا وافتراحاتنا ومشروعاتنا. ونخشى أن يستشري فسادها بعد قليل فتدخل في مطاعمنا ومشاربنا وفي أبسط وأحقر مظهر من مظاهر معيشتنا. ولم يكن أمرنا ليصل إلى هذا. نعم أنّ أبناء جيلنا الحاضر عرفوا من حقائق الكون العمرانية ما لم يعرفه آباؤهم وأجدادهم، وأصبح فيهم استعداد فطري للاخاء الوطني والرابطة القومية وتقديمها على كل رابطة سواها. ولكن تيّار الأحوال الطارئة جرفهم على صعيد منهم أو على تجاهل وتغافل، فوقعوا في سوء ما ورثوا بتطبيق نظاماتنا الرسمية على فوارق الدين بيننا. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وقد تناولت هذا المطلب الوطني الجوهري مراراً قبل اليوم في جرائد ومجلات مختلفة منها ما فتئه منذ سبع سنوات بعنوان: « لا يجتمع سيفان في غمد. إمّا الطائفية وإمّا الوطنية ». ثم أقول: « أما نحن سكان هذه الديار فأمرنا عجب. ظاهره يضحك الثاكلات وباطنه يشكل الضاحكات. أمرنا عجب. وكل عدّتنا فيه صخب ولجب. نحب الوطنية. ونشتهي الوطنية ونحسّ بحاجتنا القصوى إلى الوطنية. ونتغنى بالوطنية وتنادي ألسنتنا وأقلامنا بالوطنية في كل صباح وكل مساء. ومع ذلك لا نتحوّل قيد شعرة عن النعرة الطائفية. ولا نتنازل عن حبّة عما اصطلحنا أن نسميه حقوقاً طائفية أو تقاليد طائفية، ولا نعرف أن نعيش إلاّ بالطائفية. منشقين ريحها. سكارى براحها. ملهمين روحها. وكثيراً ما نضحّي الوطنية لأجل الطائفية بحيث لا نعطي الوطنية إلا القشر ونذّخر اللب كله للطائفية. بحيث يقول اللسان وطنية ويضمر القلب طائفية. ومن ثمّ نزداد بعداً عن تحقيق الآمال بجمع الكلمة ورصّ الصفوف ينصر بعضها بعضاً وهي حالة تماسة وألم كأنها المعنية بقول القائل.

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

* * *

كانت المملكة الاسلامية في عصورها الأولى خلافة دينية بحتة . وكان معظم النصارى المنضوين تحت لوائها أجانب عنها غرباء بلسانهم وأخلاقهم وميولهم وسياساتهم المتحدرة اليهم مما ألفوه وعهدوه وأشربته قلوبهم من دول نصرانية سابقة ما بين يونان ورومان وسريان وأقباط وغيرهم، وهي الدول التي غلبها المسلمون على أمرها وملكوا ديارها . ومن ثم كان المسلمون معذورين عذراً واضحاً في كيفية نظرهم إلى النصارى الساكنين معهم وفي اتخاذهم الحيطة بشأنهم ، وبما أن هؤلاء النصارى دخلوا في الدولة الاسلامية وهم أهل كتاب سماوي ، رعى المسلمون حرمتهم إلى حدٍّ محدود فسموهم ذميين أو معاهدين وأخذوا على أنفسهم حمايتهم والذود عن حقوقهم بشروط وقيود مفصلة في مواضعها ، خوفاً من فتنة أو ثورة أو مكيدة تقع عليهم من قبل هؤلاء النصارى .

أما اليوم فقد زالت هذه الأحوال وهذه الدعاوي، ولم يبق مسوغ لهذه التفرقة بجعل الرعايا قسمين مؤمنين أقارب ، وذميين أجانب . لم يبق مسوّغ لهذا لأن اللغة والمشارب والأخلاق أصبحت كلها موحدة ضمن إطار عربي . ان قرناً واحداً في المعاشرة والامتزاج يحسب كافياً لمثل هذا التوحيد ، فكيف وقد انقضى على تلك الحال ثلاثة عشر قرناً ونيفاً ونسي النصارى ما كان يربط أجداد أجداد فئات منهم باليونان والرومان وغيرهم رباط جنسية ونسب . لقد استعربوا جميعهم من قمة رأسهم إلى اخمص قدمهم ، ولم يضرهم شيئاً في استعرابهم ، أصلهم الأعجمي القديم . ثم إذا كانت العجمة قد دخلت في أنساب بعضهم متوغلة في قدمها ، فان بعضهم الآخر يمت إلى نسب عربي صميم من أيام الجاهلية ، وأريد أنهم من سلالة القبائل العربية المتنصرة ، وأشهرها في القسم العدناني تغلب وبكر وكلب والأزد . وفي القسم القحطاني طي وكندة وغسان ولخم وقضاعة وإياد . أو ليس كذلك شأن اخواننا مسلمي العرب ؟ فهم في أنسابهم من قبائل عربية ومن شعوب أعجمية كالفرس والترك والاكراد والشركس وغيرهم . بل إن أجداد جماعات منهم ، هم أجداد النصارى أنفسهم . وإنما دخلوا في الاسلام تدريجاً بعوامل مختلفة أهمها عاملان جوهريان لا ثالث لهما : وهما الرغبة والرهبة . على أن اختلاط العناصر والانساب شيء لا بد منه بفعل كرور الأحقاب والاشتراك في الوطن والمعيشة حتى أصبح من النادر أن نجد أمة ترجع أصولها الى جنس واحد . وقد يتسع هذا التحيص للقبائل الرحل كالبدو من العرب ومن التتار والخزر وهنود أميركا وزنوج أفريقية وقبائل الاسكيمو محوار القطب الشمالي . وأما الأمم المتحضرة وهي

تسعة أعشار البشر أو تزيد ، فلا يتسنى لها هذا التمحيص . فالأمة الفرنسوية مثلاً يدخل في نسبها القديم العرق الجرماني . ويدخل في الأمة الروسية العنصر المغولي . وفي الأمتين الاسبانية والبورتغالية الدم العربي . وفي الأمة الايطالية الأصل اليوناني إلى آخر ما هنالك.

واذا حاول جماعة من أهل التعنت والعناد أو من المولعين بالمكابرة والمجادلة أن يتمادوا عن صحة هذه النظرية العمرانية الجلية ، وأصروا على حرمان نصارى العرب حق انتسابهم إلى العروبة أجبناهم : رويدكم : إذا كنتم ترون النسب اليوناني أو السرياني أو الفينيقي أو غيرها من أنساب الأعاجم أولى بأبناء وطنكم النصارى من النسب العربي ، لأن أجدادهم من الف سنة كانوا ينتمون إلى هذه العناصر ، فانكم بهذا المقياس الجائر تخرجون بني قريش أنفسهم، وهم سادات العرب ، عن عروبتهم وتحكمون بانهم كلدان لانهم ينتمون إلى اسماعيل ابن ابراهيم الخليل بن ناحور بن تارح وهو كلداني قح من بلاد ما بين النهرين ، من مدينة الرها التي تسميها اليوم أورفا . فما قولكم في هذه المهزلة بجعل قريش كلدانا ، بل بجعل جميع القبائل العدنانية لا قريش وحدها ، خارجة عن العروبة ، مع أنها تؤلف في التاريخ نصف الأمة العربية .

وفي هذا القدر كفاية لاثبات عروبة الوطنيين من نصارى بلادنا في عصرنا الحاضر أسوة بأبناء وطنهم المسلمين . فلا يجوز أن ينظر اليهم كما كان ينظر إلى أسلافهم من نصارى الشرق الأوائل في فجر الاسلام . كان نصارى تلك العصور أعاجم بلسانهم وعاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم ومقاصدهم ، وأما نصارى اليوم فهم عرب في جميع ما ذكر . كان النصارى القدماء يؤدون الجزية لبيت المال ، والجزية هي أكبر دليل وبرهان على أن لهم حالة استثنائية في نظر الدولة ، لا تعادل حال المسلمين . وأما نصارى اليوم فقد أعفتهم الدولة من أداء الجزية ، وان شئت فقل أعفتهم من تلك الصيغة . . . كان أولئك النصارى لا يطالبون بالخدمة العسكرية إذ لا يؤمن جانبهم ولا يقبل اشتراكهم فيها إذا أرادوا التطوع لها . وأما نصارى اليوم فهم شركاء أبناء وطنهم المسلمين في هذه الخدمة على اختلاف أنواعها من جيش عامل وجيش احتياطي ودرك وشرطة وحرس . ويضاف إلى هذه المزايا أن نصارى نهضتنا الحاضرة قاموا بقسط كبير شريف في خدمة العرب والعربية داخل ديارهم ، وحملوا قبسها الوهاج ، ونشروا لواءها الظليل خارج ديارهم في عدة أقطار شرقية وغربية ، تشهد لهم بذلك شهادة لا ترد ولا تدحض ، جمعياتهم وأنديتهم وصحفهم ومؤلفاتهم وخطبهم .

(البقية في العدد المقبل)

ارتياد جزيرة العرب

خلاصة لكتاب يحتج به*

لمحمد عبد الغني حسن

في أوائل القرن السابع عشر الميلادي أو في سنة ١٦٠٩ بالتحديد، كتب موظف في شركة الهند الشرقية يقول في تقرير له : « يجب أن يتوقع المسافر إلى عدن أخطاراً تنتظره وأهوالاً ترتقبه ، لأنها مدينة مشحونة بالأحراس والجنود ، وليس فيها من التجار إلا قليل . والربح القليل الذي يؤمل من التجارة فيها لا يوازي الأخطار التي يستهدف لها التاجر . أما مدينة مُخا اليمنية فهي على صغر حجمها مركز تجاري أمين لأنها مملوءة بالتجار لا بالجنود » .

وكانت عدن قبل ذلك الحين ببضع عشرات من السنين من أملاك الدولة العثمانية . ولكن قيمتها التجارية مع بلاد الهند والجزيرة العربية وأوربا أخذت تتضاءل ، حتى انتهى الأمر الى مدينة مخا التي أخذت تحتل مكانها وتنزع عنها قديم شهرتها .

وكان يحكم عدن من قِبَل العثمانيين رجل يوناني غير مسلم، اتخذه حاكم صنعاء صليعاً له وعهد إليه حكم هذه المدينة العسكرية .

وفي سنة ١٦٠٩ أيضاً أرسلت شركة الهند الشرقية بعثة الى عدن ، على رأسها « اسكندر شاوري » ومعه رجل من الذين يحبون الضرب في الأرض للتجارة وعقد الصفقات والترويج للسلع حتى تنفق . هذا الرجل اسمه « جون جوردان » من مقاطعة دورست بانجلترة .

لقي هذان الرجلان الطامعان في ثروة البلاد العربية عنتاً وارهاقاً ، وخاصة في عدن تلك المدينة التي ليس فيها جرعة من الماء سائغة لظمآن . وليس فيها الا الصخور الرُّبد والحجارة الدُّكن .

ولكنهما لم يعرفا وهناً ، ولم يدعا اليأس سبيلاً الى قلبيهما . فقد تعرَّفا الى عدن

(*) L'Exploration de L'Arabie — Par : R. H. Kiernan. Paris 1938

وصنعاء وغيرها . بل تعرفا الى كثير من بلاد اليمن . ولم يجد « شاربي » سوقاً للسلع الكثيرة التي جلبها معه من الهند ، وإذا وجد السوق فانه لا يصادف الا الثمن البخس والدراهم المعدودة . فعاد الى الهند تاركاً زميله المغامر الحربي « جوردان » يسير في مناكب اليمن ...

وعاشت شركة الهند الشرقية « السير هنري ميدلتون » ليتم ما عجز عن اتمامه سابقه « شاربي » . فجاء الرجل ووجد في « جوردان » يده وعدته . وكان في « جوردان » صلابة وعناد لا يخضعان لقساوة الظروف وحرج المواقف .

وهما كانت المنافسة بين الانجليز والهولنديين أخذت سبيلها . وخاصة بعد القضاء على نفوذ البرتغال ، وانقلبت المنافسة التجارية الى عداوة مميتة . ولم يكن غير أطراف الاسنة مركب بين المتنافسين . ولم يكن للمضطرين الا وكوبها .

وجاء أسطول هولندي صغير يقوده « هدريك جانزون » . وكان في استطاعة أسطول « جوردان » ان ينقي القضاء بالهرب . ولكنه آثر الموت الذي ليس منه بد ، ووجد طوعاً لنفسه ولبلاده أن يموت جباناً ...

وانتهت المعركة بقتل « جوردان » ، وهو يحمل علم بلاده في يده — بعد ما أصدر أمراً بالتسليم حتى لا يكون مصير بعثته الفناء .

***

هذه المعركة البحرية الصغيرة ، هي وأخواتها في خلال القرن السابع عشر ، والنصف الاول من القرن الثامن عشر ، لم تكن ارتياداً للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الصحيح ، وإنما كانت منافسات تجارية . ولكنها على كل حال كانت الخطوات الأولى في الارتياد لتلك الجزيرة المحيقة الأطراف .

وأول كشف للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الحديث ابتدأه الدانمركيون . وهم قوم على قلة عددهم حملوا لواء الارتياد . وما ضرهم انهم قليل عددهم ، فالكرام في الدنيا قليل ...

وأول طارق لبلاد العرب على نية الكشف العلمي هو « كارستون نيبوهر » الدانمركي ، الذي أرسلته حكومة بلاده على رأس بعثة أُمدَّت بأسباب البحث والاطلاع الممكنة في عصره . قامت البعثة سنة ١٧٦١ م . وقضت سنة في مصر وشبه جزيرة سيناء . ثم بلغت جدة سنة ١٧٦٢ م ومنها أبحرت الى ميناء في بلاد اليمن يدعى « اللحيَّه » بالحاء والياء المشددة المفتوحة وهاء في آخره[1] . وكان هذا الثغر اليمني هو الهدف الذي ترمي اليه البعثة .

---

(١) اعتمد هذا الاسم العالم الجليل الاب انستاس ماري الكرملي في كتابه « بلوغ المرام في شرح مسك الختام » الذي نشره الاب « ص ٢٧٠ س ١٦ » . وخطأ من يقول ان اسمه فيها

ومن هناك أبحر وبالها الى « مخا » الحافلة بالتجار وأكبر ميناء لتجارة البن . ولما كان « نيبوهر » غير عالم بالحضارات القديمة ولا متخصص في دراستها فقد اصطحب معه علماً من أعلام هذا العلم اسمه (فون هافن) . وظلت البعثة بين إتهام وإتهام حتى بلغت صنعاء التي جابها « نيبوهر » شبراً شبراً ، ووصف كل معلم من معالمها وحيّ من أحيائها . ولقد كان وصفه للحي اليهودي فيها شائقاً .

وبعد أن اقامت البعثة عشرة أيام في صنعاء ، عادت إلى مخا عن طريق الحديدة ومن مخا أقلعت البعثة إلى الهند . وفي العام التالي بتمي « نيبوهر » وحيداً بعد وفاة ثلاثة من زملائه فزار عُمان ومواطن أخرى على الخليج الفارسي ثم ذهب إلى البصرة فسورية ففلسطين ومنها إلى وطنه بعد غياب أربع سنوات . وطبع نتائج رحلته سنة ١٧٧٢ . وبعد عمله هذا أول وصف لبلاد العرب وخاصة اليمن . وكان وصفه للأماكن المختلفة وصفاً مملوءاً بالدقة ، حتى انه لم يترك لمن جاء بعده من الروّاد مجالاً للوصف الدقيق .

وكان « نيبوهر » منصفاً في حكمه على العرب طارقاً أقدارهم ، فلم تمل به دواعي الهوى في حكمه ، وقد عرفهم عن قرب ، وفرّهم عن تجربة . وقال فيهم في كتابه [1] . « إذا كان هناك شعب يقدمه التاريخ مثالاً فريداً للأمانة المصحوبة ببساطة التقاليد ، فانه الشعب العربي بكل تأكيد »

* * *

وبعد مضي أكثر من قرن على بعثة « نيبوهر » ذهب « هالفي » إلى بلاد اليمن سنة ١٨٦٩ فاكتشف مدينة مأرب والكتابة المنقوشة على صخورها . ودخل اقليم نجران الخصيب ، حيث لقي جالية من اليهود في قرية « خلاف » فأقام بينهم بضعة أسابيع . وفي سنة ١٨٧٠ وصل إلى مدينة « النحاس » التي سميت بهذا الاسم لأن آثارها المنقوشة وجدت على ألواح من هذا المعدن . وعلى بعد ساعتين من شرقي مأرب على سد مأرب الشهير في التاريخ .

ولم ينفرد « هالفي » بكشف مأرب ، ولكنه فتح سبيلاً ممهداً للعالم الأثري النمسوي « جلازر » الذي قام — تحت حماية الأتراك — بزيارة مأرب سنة ١٨٨٩ . ولولا خصومة بين قبيلتي « حاشد » و « بكيل » لأمعن في سيره . ولكنه خشي على نفسه أن يقع ضحية في خلال هذا الخصام . وانتظر الرجل حتى يجد في مصالحة اليمنيين المحتربين فرصة لاستئناف عمله . وكان ذلك في رحلة ثانية وصل فيها إلى مأرب ، وأقام فيها ثلاثين يوماً جمع خلالها

(١) Voyages à Travers L'Arabie

طائفة كبيرة من النقوش والآثار ، ولكنهُ لم يستطع أن يخترق شرقي مأرب ، فقد كانت دوية مخيفة غير واضحة الآفاق .

وفي سنة ١٨٣٥ استطاع « ويلستد » الذهاب إلى قلب حضرموت ، وما كان ذلك سهلاً ولا ميسوراً ، ولكنه كان بزماع الأمر والهم الكنيع كما فعل سويد بن كاهل صاحب القصيدة العينية المشهورة . وكاد « ويلستد » ينجح في مغامرته لولا أن بعض المخصومات الدهبية في اليمن ، لم تمكن البعثة من انجاز عملها .

* * *

ولما كان الحجاز أشهر أقاليم الجزيرة العربية — لما المدينتين المقدستين من مقام عظيم — فقد قام « فارنيا » الايطالي من دمشق في أوائل القرن السادس عشر . ولعلهُ أول أوربي زار أرض الحجاز . كما كان « يوسف بلس » الدينوري الانجليزي من أوائل الزائرين للحجاز . وهناك آخرون زاروا مكة متنكرين أو متظاهرين بالاسلام . وظلَّ الحال كذلك إلى أول القرن التاسع عشر . فزار الحجاز — لأول مرة — لغاية علمية محدودة بوساطة « بادیا لبلیك » الاسباني الذي تسمى باسم « علي بك » وادعى أنه من أعقاب البرامكة وأنه بقية من بقايام الفرصل إلى جدة سنة ١٨٠٧ . وأدَّى فريضة الحج في مكة . وهو أول مرتاد أوربي اخرج للعالم أول صورة دقيقة للمدينة المكرمة وشعائر المسلمين في البيت الحرام . كما كان أول من حدد موقع مكة بعد مشاهدات فلكية متتابعة ، ووصف كل ما يحيط بها من المواقع والمطامح .

ولقد مهد « علي بك » الاسباني طريق إرتياد الحجاز للرحالة « بركهاردت » الذي ولد في « لوزان » وتعلَّم في سويسرة وأتم تعليمه في جامعتي لندن وكامبريدج . وكان في الفتى صلابة في الخلق ودأب في الدرس ، حتى لقد احتمل الحرمان الأليم والضنى المضني في سبيل دراسته . فحفظ القرآن ودرس التفسير في أوسع كتبه وأعظم مراجعه ، وتعمق في بحث الشريعة الاسلامية تعمقاً مكنه من أن ترسخ قدمه فيها . وهو الرائد الحقيقي لبلاد الحجاز

ولقد مكنته قراءاته الواسعة ومعرفته بحياة العرب وعاداتهم من أن يدخل بلاد الحجاز كمسلم . فنزل جدة سنة ١٨١٤ حينما تمَّ احتلال الوهابيين للحجاز . وكانت جيوش محمد علي باشا على أهبة التقدم نحو نجد . وزار الطائف وقضى ثلاثة شهور في مكة حجَّ واعتمر وقضى مناسك الحج . وفي سنة ١٨١٥ سافر إلى المدينة بطريق الساحل . وبالرغم من اعتلال صحته فقد سجل كل ما رأى وجرب بالدقة التي امتازت بها رحلته إلى مكة . وفي النهاية حينما ألمت عليه العلة — اضطرَّ إلى قطع رحلته وعاد إلى القاهرة ، ومات بعد ذلك بعامين .

ومن روّاد «الحجاز» «ريتشارد برتون» الذي كتب رحلته في كتاب لم يسبقه اليه سابق من حيث اتساعه وضبطه. وفي سنة ١٨٧٧ أوفده الخديو اسماعيل ليكشف مناجم الذهب في شمالي الحجاز! ويوجد هناك آثاراً ذات قيمة تاريخية ونقل منه خرائط ومصورات

وبعد عشرين عاماً زار المدينتين المقدستين رجل هولندي اسمه «هيرجرونيه» وكان عميد الرواد في عصره. وطبع كتابه بالألمانية ولكنه لم ينل من الشهرة ما نال سابقيه. ولعلّ ذلك راجع الى أنه كشف أشياء كانت معروفة لدى جمهور العلماء في زمانه.

وكانت انتصارات ابراهيم باشا في الحجاز سبباً من أسباب تفرغ الرحالين إلى أواسط الجزيرة العربية. فقد دخل عدد من الضباط الأجانب في الجيش المصري، ولكنهم لم يتركوا لنا أثراً من مشاهداتهم.

ولكن حكومة الهند كانت راغبة في القضاء على القرصنة في الخليج الفارسي، ومتطلعة إلى الحصول على معلومات صحيحة عن مركز البلاد العربية. فأرسلت الضابط (سادلير) مندوباً عنها لدى ابراهيم باشا الذي كان والياً على البلاد العربية، والذي تقبله بقبول حسن، وكان أول رحالة أوربي اخترق بلاد العرب من بحر إلى بحر. ولو أن النتائج السياسية لرحلته كانت هباءً، إلاّ أنها كانت ذات قيمة جغرافية كبيرة. فقد أصبح اختراق بادية نجد شيئاً مستطاعاً حتى في أشد الشهور قيظاً.

وإلى هذه اللحظة ظلّ اقليم جبل شمّر غير مطروق إلى أن جاء «والن» نيابةً عن محمد علي باشا ليستطلع عن شمالي نجد نبأ. فاخترق صحراء «النفود» الى «حائل» وهي العاصمة الزدهرة لجبل شمّر. ولقد أدهشته أخلاق العرب ومروءتهم وعدالة رئيسهم.

وفي سنة ١٨٦٢ زار الجوف وحائل والرياض والأحساء، الرحالة «پلجراف» في صحبة «بركات» وهو قسيس لبناني وصل فيما بعد الى مرتبة مطران. ولقد كانت «پلجراف» معرفته الوثيقة باللغة العربية وتاريخ الجزيرة من رسم صورة حية ناطقة للحياة العربية. وهي صورة ملأى بالفتنة والروعة، ولكنها من الناحية الجغرافية لا تعد شيئاً، فان طغيان الخيال والاغراق في المبالغة، جعلت رحلته أقرب الى الملحمة منها الى التحقيق، حتى ان الرحالة «دوتي» بعد خمسة عشر عاماً لم يجد أثراً لمعالم پلجراف!

ولكن «پلجراف» وجد من يذاكره عنه بعد موته وهو الدكتور «هوجارث»، وكان آخر رحالي القرن التاسع عشر «البارون» تولده» الذي زار مدينة حائل سنة ١٨٩٣. وهو أول من مهد السبيل لروّاد القرن العشرين.

النباتات المتطفلة

لمرصوان محمد مرصوان

التطفل وجود فردين يستفيد أحدهما من الآخر مسبباً له بذلك ضرراً يتفاوت في خطورته ، وتكون نتيجته الموت في غالب الأحيان ، ولم يعرف بالتحقيق كيف نشأ التطفل. وأغلب الظن أنه نشأ بمحض المصادفة فقد يتفق أن يبتلع حيوان ما إحدى الكائنات الحية ، نباتية كانت أم حيوانية ، أو أن تدخل هذه في نسيج أي نبات ، فاذا وجدت أن هذه البيئة الجديدة تحوي كل الظروف الملائمة لنموها وتكاثرها من غذاء وحرارة وغيرهما ، وأنها لا تختلف كثيراً عن موارد غذائها الطبيعية ، فضلاً عن كونها لا تعاني مجهوداً يذكر في الحصول على ما يقوم بأودها ، استمرأت هذه الحياة وجعلتها ديدناً لها ، وبذا تصير خاصية التطفل عادةً لهذا الكائن الحي . ومما يؤيد هذا أن عدداً كبيراً من الطفيليات يمكنها أن تصيب عوائل مختلفة من أجناس متباينة مثل فطر Corticium vagum فله القدرة على اصابة نباتات عدة مثل القطن والبطاطس والبنجر والفاصوليا . . الخ . وعلى ذلك فالطفيليات، ولو أنها منتشرة انتشاراً عظيماً في مملكتي الحيوان والنبات، إلا أنها لا تكوّن قسماً طبيعيًّا خاصًّا ، مما يدل على أن هذه الحالات انما نشأت مستقلة عن بعضها ، واذا كانت هناك بعض أنواع من الديدان الشريطية تقتصر على التطفل ، فانه قد ثبت أن لها أسلافاً عاشت حرة أي غير متطفلة . ويمكن تقسيم النباتات المتطفلة قسمين :

١ — النباتات اللازهرية أو (الخفيّة الزهر) Cryptogamics

٢ — النباتات الزهرية أو (البادية الزهر) Phanerogamics

ومن أهم الطفيليات في النباتات اللازهرية الفُطر والبكتريا (القُصَيّات) . فالفطر Fungi نبات لا يحتوي على البَخضُور (الكلوروفيل) أي انه لا يستفيد من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي ليكوّن مركباته الكربونية ، ولهذا يتطفل على الكائنات الحية ويمتص منها غذاءه ، فنجد أن هيفات الفطر تخترق طريقها الى العائل ميكانيكيًّا ، بأن تضغط

على أديم النباتات — وهي ثابتة في مكانها — وتستمر في الضغط بشدة حتى ينفجر الأديم وبذلك يتفتح الطريق لدخول القطر، وعندئذ ينمو داخل النبات مخترقاً الأنسجة نفسها أو نامياً في المسافات البينية ويفرز أنزيمة (خميرة) البكتيناز Pectinase التي تفكك الخلايا وتؤثر على الجيلّة أو المادة الحية (البروتوبلازم) وبذا تتحلل الأنوية وتنتفخ الكلوروبلاستيدات الخضر (الكلوروبلاستيدات)[1] ثم تتحلل وتختفي حبيبات النشاء فيستطيع القطر أن يمتص غذاءه. وقد شوهد أن خميرة البكتيناز تنتشر متقدمة الهيفات فتفتل الخلايا وتحلل الجدر قبل وصول الهيفات اليها، ويسبب هذا التأثير عفن الأنسجة، وينتهي بموت النبات كله.

ويختلف تأثير القطر على النبات باختلاف أنواعه، فمنه ما ينحصر تأثيره على الخلية التي يكون فيها فقط كالقطر المسمّى Myxomycetes، وهو يصيب نباتات الجنس المسمّى براسيكا التي منها الكرنب مثلاً، فيكمن هذا القطر في داخل خلايا العائل ويمتص محتوياتها ويتكاثر فيها فيميتها. وقد يؤثر القطر على الأوراق فتكمد وتموت مثل مرض البياض الزغبي في العنب وهو المسمى Plasmapara viticola، وبعض القطريات تفرز سموماً (توكسينات toxines) تسد جيلّة السائل، مثل القطر المسبب لمرض ذبول القطن المسمى Fusarium vasinfectum

ولا يقتصر تطفل القطر على النبات، بل يتعداه إلى الحيوان، فأغلب الأمراض الجلدية التي تصيب الحيوانات يسببها القطر. فمرض القُراع الذي يصيب جميع الحيوانات الصغيرة وينتقل الى الانسان، تسببه ثلاث أنواع من القطر: الأول ويسمى Trichophyton ويصيب الماشية، والثاني يسمى Microsporu ويصيب الخيل، والثالث Achorion وهو يصيب الانسان. وهناك نوع من القطر يسمى Empusa musca يصيب الذباب في ابتداء الخريف ويكون على أشده في نوفمبر، فتصبح الحشرات ضعيفة لا تقوى على السير ويكثر عددها الذي يلتصق بالجدر والأواني فلا تقوى على تركها! والتأثير الذي يحدثه هذا القطر في الحشرة هو اتلاف العضلات، فلا تقوى على الطيران. ومرض Muscardine الذي يصيب يرقات دودة الحرير سببه قطر من جنس Botrytes يسبب تصلب الجسم بسبب الافرازات الكلسية التي يفرزها على جسم الحشرة.

أما الطفيليات الساة بالقصّيات (البكتريا) Bacteria فعبارة عن خلية واحدة تحتوي

(1) Chloroplastids : chloro Gr. = green & plastids = form units. E. Haeckel (Engl. Ed.) I. 347.

على المادة اللازمة للحياة أي الجلبة (البروتوبلازم) وتحاط بجدار خشائي رقيق مكوّن من مواد أزوتية . ولما كانت البكتريا فاقدة البخضور (الكلوروفيل) فانها تحتاج إلى التغذي من أجسام الحيوان والنبات ، وهي منتشرة بكثرة في الهواء والماء ، وعالقة بالأسطح المعرضة للهواء الجوي ، وعلى ذلك فالكائنات جميعاً معرضة لهجمات هذه البكروبات وكثير منها يسبب اضراراً وخيمة للانسان ، فهي تصيبه إما عن طريق الجلد أو القناة الهضمية أو الجهاز التنفسي ، فاذا وصلت الى الجلد عن طريق جرح أو ثلم به ، فانها تتكاثر فيه بسرعة مسببة التهابات موضعية قد تتحوّل الى حرّاجات تتلف الأنسجة ، وقد تفرز مواد سامة تفضي إلى تسمم الجسم . والقصيات (البكتريا) التي تصيب الجهاز الهضمي كثيرة : أهمها وأخطرها بكتريا التيفود والكوليرا والدوسنطاريا ، وأخطر أنواع البكتريا هي التي تصيب الانسان عن طريق الجهاز التنفسي فتسبب له أمراضاً خطرة مثل مرض السل الرئوي والالتهاب الرئوي الذي يحدث التهاباً في أنسجة الرئة والقصاصل ، وتنتقل هذه القصيات بواسطة قطرات الماء التي تخرج من فم المصاب أو أنفه عند السعال أو الكلام .

***

النباتات الزهرية الطفيلية : Parasitic Phanerogams

الأصل في غذاء النبات أن يستمد الكربون اللازم له إمّا من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي فيدخل أنسجة الورقة أو الساق الخضر ، وإمّا من الهواء المحيط بالنبات ، ثم يمتص النبات الماء من الأرض بواسطة الجذور . وبواسطة البخضور (الكلوروفيل) يحدث تفاعل كيميائي من ثاني أكسيد الكربون والماء ، فتنشأ عنه كربوإيدرات . والنباتات الخالية من البخضور تماماً ، والتي تعتمد على عائلها في الحصول على الماء والاملاح والمواد الغذائية العضوية اللازمة لها تسمى بالنباتات التامّة التطفل . وأما التي تستمد من عائلها الماء والأملاح فقط ، ويمكنها تجهيز المواد المصنوعة بواسطة أوراقها لاحتوائها على البخضور ، فتسمى النباتات ناقصة التطفل

ومن النباتات التامة التطفل الهالوك ، وهو يتطفل على جذور نباتات مختلفة في مصر ، كالفول والطماطم والكرنب . ولابدّ لنجاح التطفل في هذا النبات من أن تنبت بزوره بجوار جذور العائل ، فمتى توفرت كل شروط الملاءمة للانبات من حرارة وماء وغيرهما ولم توجد جذور العائل ، لا تنبت البزور ، وحين إنباتها تنمو منه تمتصّات تتجه نحو العائل وتخترق

أنسجة الجذر وتتصل بأنابيب الخشب لتمتص الماء والأملاح ، وبعضها يتصل بالماء للحصول على المواد العضوية الجاهزة، ثم ينمو الطفيل ويكون تحت الارض جسما درنيًا تتصل حيزمة الوعائية بحزم العائل ، ويأخذ هذا الجسم الدرني في النمو ، ثم ينبثق منه شُمَّراخ زهري يظهر فوق سطح الارض ويحمل أوراقاً حرشفية خالية من البخضور . وبزور الطالوك يمكنها أن تعيش في الأرض عشر سنوات في حالة همود إذا لم تجد عائلها الخاص ، دون أن تتلف أو تفقد حيويتها .

***

والحامول نبات زهري تام التطفل يكثر في مصر على البرسيم والكتان ، ومن المعتاد أن توجد بزور الحامول مع بزور العائل ، فإذا زرعت نبات بزور العائل أولاً ثم تعقبها بزور الحامول فيخرج منها ساق رقيقة خيطية تثبت نفسها في الأرض بواسطة شُعَيْرات تنمو من القاعدة، وتنمو الساق إلى حد يكفيها للالتفاف حول العائل ، ثم تتحرك قمتها حركة دائرية ، حتى إذا ما لامست ساق العائل التفت حوله وماتت الشعيرات التي كانت تثبته في الأرض، وبذلك يفقد الحامول علاقته بالتربة ويصبح كل اعتماده على العائل . ثم تنمو من الساق الخيطية أقراص تلتصق بساق العائل،وتخرج من هذه الأقراص ممصات تخترق أنسجة العائل إلى أن تصل إلى الحيزم الوعائية ، وكذلك تتفرع من الممصات خلايا جانبية رقيقة الجدر ، تتصل بخلايا القشرة والأنسجة النخاعية لامتصاص المادة المخزونة فيها .

***

وأما النباتات ناقصة التطفل فأهمها نبات الثيسيوم Thesium وهو نبات عشبي صغير له أوراق خضراء ، ويتطفل على جذور النجيليات وهو يكثر في مريوط ونبات اللورانثس Loranthus وينمو بكثرة على أشجار السنط ويشاهد في الجنوب الشرقي من مصر ، وتمتد من ساقه ممصات تخترق أنسجة العائل فتمتص منه الماء والأملاح . وأما المادة العضوية فإن النبات يجهزها بأوراقه الخضر . وبزوره تنتقل بواسطة الطيور إذ أنها طعام مفضل ومحبوب لديها ، ولما كانت البذرة محاطة بمادة لزجة، فهي تلتصق بمنقار الطائر فيحاول أن يتخلص منها بأن يمسح منقاره عدة مرات على شجرة مثلاً ، وبذا تنتقل البذرة إلى الشجرة وتلتصق بها مكونة نباتاً جديداً .

من الأدب البولندي

عدو الكذب

قصة عن الكاتب البولندي

فاسيلف سوتكي

نقلها حسين المهدي غنام

سيداتي . سادتي

يجب عليكم جميعاً أن تخجلوا من أنفسكم

قلّب رئيس المحكمة نظره في الأضابير المطروحة أمامه ، ثم صاح بالمتهم — قف ! إن اسمك «باتوسلاف ماتوشك» ، وعمرك أربعون سنة ، ولكنك ما زلت غريباً . وقد استغلت في «براتسلافا» زمناً ما . ثم حولتك إدارة البريد إلى هذه البلدة ، فسببت لها كثيراً من الألم ، وانغصت على أهليها الحياة ، ولا أستطيع تعليل ذلك . ولكن لديك تخبرنا عن السبب الذي حدا بك الى فعلتك !! فأجاب المتهم بالتأكيد. ولكني لا أستطيع أن أشرح ذلك في كلمات قليلة فاسمح لي قبل كل شيء أن أؤكد لك أني كنت دائماً ، وما زلت ، بطلاً من أبطال الصدق ، بل أقول انني كنت وما زلت متعصباً للصدق تعصباً دينياً ، إذا صح هذا التعبير!

ونقل المتهم بصره من الرئيس الى الجمهور ، ووجه الكلام اليهم جميعاً ، ثم قال: والآن ، اليكم قصتي ... لقد مرّ الكثير من المراسلات بين يدي في مكتب البريد ، فأحببت أن أكوّن لنفسي فكرة عامة عن مستوى الذكاء عند سكان هذه البلدة ، وهذا لا يتسأتى الاّ بالاطلاع على رسائلهم ومكاتباتهم ، ولذا فضضت كثيراً منها . . . ومن السهل ان يُفضّ الانسان مظروفاً ويقرأ ما فيه ثم يقفله مرة أخرى .. وبهذه الطريقة قرأت الرسائل والخطابات ، فرأيت أشياء لم تسرني ... إن مستوى الذكاء فيها يستحق الاشفاق ، فانه أقل من المتوسط ، ولم تحتو كتب القوم ورسائلهم الاّ على سخافات مزرية وتلفيقات وغائم وأكاذيب.

سيداتي ! سادتي ! يجب عليكم جميعاً أن تخجلوا من أنفسكم ...!

وما كاد المتهم ينهي بهذه الكلمات ، وقد وجهها الى المستمعين من أهل البلدة ، حتى تعالت صيحات السخط والحنق وكادوا يزلزلون له سوقاً ، غير أنه ظل هادئاً ولم يحرك ساكناً ، رغم ما بدا على الجمهور من آثار الغضب . واستمر في كلامه فقال : ... والكثرة ما قرأت من رسائل الناس تعلمت تقليد خطوطهم وتوقيعاتهم ، فهذه هي الطريقة

المثلى التي رأيتها أنجع الطرق جميعاً لتنفيذ خطتي . . . وبعد حيرة استغرقت ثلاثة شهور كاملة ، وجدت نفسي قادراً على تنفيذ أولى محاولاتي . . . وذلك أن شاباً من هذه البلدة كتب خطاباً الى فتاة في بلدة « مورافسكا أوستراغا » . . . وكان هذا الخطاب غاية في الكآبة والحزن وخيبة الأمل . . . وكان فيه ثلاث غلطات نحوية فاحشة ، بله اخطاء النهجية . . . ولكني كنت قد قرأت قبل ذلك ثلاثة كتب من تلك الفتاة موجهة إلى فتاها ، وقد فهمت من هذه الرسائل ان الفتاة رضية الأخلاق سمحة الشخصية . فعزّ عليّ أن يكون كتاب الفتى محبّباً لأمالها ، فألقيت به في سلة المهملات ، وأنشأت بدلاً منه خطاب غرام مشرق الديباجة قلت فيه للفتاة « تعالي إليّ يا حبيبتي ، اني أريد أن أتزوج منك بغير إبطاء » . وقد جاءت وتزوجت فعلاً . . . ولكن ليس من فتاها الأول بل من فتى آخر ، هو صديق له ، أحبّته لأول نظرة حبّاً فاق حبها للفتى الآخر ، وعاشا زوجين سعيدين . . . وليست هذه غلطتي بطبيعة الحال . . .

وهنا قال رئيس المحكمة ولكن يظهر انك كتبت رسائل أخرى غير رسائل الحب . . .

فأجاب المتهم — نعم . . . كتبت أشياء أخرى . . . ولكن فارقاً بعيداً بين سيدة غاية ، وبين السيد « فرانتا نوفاك » . . . لقد كتب السيد « نوفاك » رسالة الى السيد « كورت » وقد ذهب الى « براجا » أسابيع قليلة ، وقال له في تلك الرسالة : « متى تعود الينا ثانية ايها العزيز كورت ؟ اني لافتقدك كثيراً فلا أجدك . . . » . ومضى في رسالته على هذا النمط ، فملأ صفحتين . على أني أعلم أن رأي السيد « نوفاك » في السيد « كورت » ، رأي مخالف لما جاء في تلك الرسالة . . . وعلى انه ليس من وظيفة مصلحة البريد أن تشجع الكذب ، أو تعمل على نشره في الناس ، فقد كتبت حاشية ذيلت بها رسالة السيد « نوفاك » ، مقلداً خطه بطبيعة الحال ، قلت فيها : « . . . اني لم أقصد بما كتبت اليك إلاّ السخرية منك ، فاذا أردت أن تعرف ما هو رأيي فيك حقّاً ، فما عليّ من حرج إذا قلت لك بكل صراحة : إنك سكّير عربيد وغد نذل ، خنزير كبير . . . » . . . ثم بعثت بالرسالة ، وكانت النتيجة أن السيد « كورت » ، قابل السيد « نوفاك » بعد عودته من براجا ، وحياه بلكمة على فكه .

قال المتهم هذا مستغرقاً في الضحك .

فصاح به رئيس المحكمة — أحسن من سلوكك وقوّم من تصرفك ! ولا تنس إنك متهم أيضاً بسرقة أشياء أخرى أرسلت بالبريد . . .

قال المتهم اني أعلم حقيقة ما تشير اليه ، ولكن هذه ليست سرقة ، أما ما حدث بالضبط فكان هذا : « ذات يوم تسلمنا رسالة من پاريس ، عليها هذا العنوان (السيد

الكرنت « موفت كرابتوه الثاني » يحفظ بشباك البريد) . فما قرأت هذا العنوان أخذت بغرابته فاشتبهت فيه ، وفحصت الرسالة ، ووجدت بداخلها ثلاث صور ... أتعلم ما هي ؟ إنها ثلاث صور بذيئة وضيعة سافلة ... ولم تكن بالصور التي ربما قد يذهب إليها خيالك . ولكنها قبضت نفسي ، على أية حال ، وجعلتني أشمئز من منظرها ، ومن السيد الذي كانت مرسلة إليه . ولكي أعلن عن اشمئزازي لهذا السيد ، ألقيت بالصور القذرة الثلاث في الوقد ووضعت بدلاً منها ورقة أخذته من الرماض ، حتى أؤكد لهذا السيد تقززي من الصور المرسلة إليه ... ولكن . . هل تستطيع أن تتصور أو تتخيل من ذا الذي جاء في اليوم التالي لاستلام تلك الرسالة وما تحوي من صور ؟ لا أظنك تصدق هذا ... ولكنها الحقيقة ... فالذي جاء لم يكن غير السيد « كارل دوستالك » ، عمدة هذه البلدة بنفسه . . . هذا الرجل الذي يحترمه كل انسان ، وهو والد ستة أبناء . . ! »

وعندما انتهى المتهم من هذا الكلام انفجر الجمهور المتفرج ضاحكاً . . . وكان « دوستالك » ، عمدة البلدة ، رجلا متديناً ، قوي البنية ذا لحية كبيرة بيضاء ورأس أصلع ، . . . فلما سمع هذا الكلام ، وقف ساكتاً ، ومسح أنفه بمنديل كبير الألوان ، وخرج من قاعة الجلسة يدلف صامتاً من غير أن ينبس بكلمة واحدة . . .

وصاح رئيس المحكمة — إني أمنعك من افشاء أسرار البريد ، وإلاَّ رفعت الجلسة . .

وعندئذٍ مال عضو اليمين على رئيس المحكمة يهمس في أذنه . وكاد الرئيس يجيبه لولا أن فاجأه المتهم قائلاً : « . . . لا تقلق بالاً الى ما يقول مستشارك ياسيدي الرئيس ، إنه غير أهل لصداقتك . . . »

وصاح الرئيس بالمتهم — أمسك لسانك ! . . لا تتدخل في شئون لا تعنيك

المتهم — حسن . . . هذه أمور لا تعنيني حقاً . . ولكنك تحملني إذ تعامل مستشارك معاملة الأكفاء ، فهل تعلم ماذا قال عنك في إحدى رسائله ؟ . . . »

وأخرج المتهم ورقة كبيرة ومضى يقرأ « . . . إني لم أرَ في حياتي ، رجلاً أكثر غفلة من رئيس محكمتنا . . . »

ولم يستطع رئيس المحكمة أن يسمع بقية رأي مستشاره فيه ، فرفع الجلسة ، وخرج مندفعاً من القاعة غاضباً ، يتبعه عضو اليمين صائحاً إنه سيوضح له كل شيء ، ولكن الرئيس رفض أن يصغي اليه . . . وجلس المتهم ، ووقف خلفه أحد ضباط البوليس .

والتفت المتهم الى الضابط وقال : لست أفهم لماذا يكذب الناس هذه الأكاذيب الكثيرة ، ويظهرون غير ما يبطنون . لو أنهم لم يقولوا غير الواقع ، لأصبحت الدنيا أجمل بكثير مما هي ، ولعشنا فيها سعداء !

من أنواع النبات

الطبي

لمحمود مصطفى الرصباطي بك

﴿ الأُبْهَل ﴾ والعامة تقول الأُبْهُل بالضم شجر من الفصيلة الصنوبرية منبته في وسط أوربا وأجزاء من آسيا ويزرع في بريطانيا اسمه النباتي Juniperus Sabina, L. وبالانجليزية Savin وبالفرنسية Sabine تشتمل فروعه الصغار وأوراقه وثماره على دُهن منصمّد فعّال يتداوى به مدرٌّ للطمث وطارداً للدود .

﴿ أزرارُ الغاسول ﴾ ويقال « غاسولُ أزرار » هو عشب ينبت بطبيعته في مصر ويعرف « بالغاسول » من الفصيلة المسمبريانثيمية اسمه النباتي Mesembryanthemum nodiflorum, L. أي المسمبريانثم العقدي الزهر وبالانكليزية Egyptian Fig Marigold وبالفرنسية Ficoide Nodiflore تداووا به في قديم الزمان منظّفاً ومدرّاً للطمث .

﴿ الأَسارُون ﴾ يوناني معرّب « أسرون » Asaron ويسمى بالناردين البري » نبات من الفصيلة الارسطولوخية تأقلم في قليل من جهات شمال انكلترة وفي اسكتلندة اسمه النباتي Asarum europaeum, L. وبالانكليزية Asarabacca وبالفرنسية Cabaret تسحق أوراقه وجذره وتستعمل عقاراً مقيئاً ومسهلاً ومدرّاً للبول وإذا استعمل المسحوق سعوطاً (نشوقاً) أحدث افرازاً غزيراً من المنخرين .

﴿ الأسرَاس ﴾ ويقال « الرساس » نبات يعرف « بالبرواق » في مفردات ابن البيطار من الفصيلة الزنبقية ويزرع في الحدائق الانكليزية اسمه النباتي Asphodelus ramosus, L. وبالانكليزية Tall or Branched Asphodel وبالفرنسية Batou Royal تستعمل أرومته ضمن عقاقير أخر في مداواة الجرب فقد يصنع منها مروخ بالخل للجلد في حالة الجرب

﴿ الإسفَنْد ﴾ هو « الحَرْمَل » نبات شديد الرائحة من الفصيلة السذابية ينبت بطبيعته في مصر والعامة تسميه غالة الذئب » و « الحرجويل » و « الحرملان » اسمه النباتي Peganum Harmala, L. وبالانكليزية Syrian Rue وبالفرنسية Harmale وهو ينبت بطبيعته أيضاً في أسبانيا وهنغاريا وشمال أفريقية وبلاد العرب وكشمير وجبال هيملايا

وغيرها. تستعمل بزوره في تركيا طاردة للدود وتابلاً وكذلك للصبغ باللون الأحمر. والأطباء الوطنيون من الهنود يعطون البزور منوماً وتقيع الأوراق في النقرس (وجع المفاصل) وغيره. ويخلطون مسحوق الجذر بدهن الخردل لإبادة الهوام في الشعر. وفي محيط الهيط «قيل حبه يخرج السوداء والبلغم اسهالاً ويصفي الدم ويسوم حتى عده الشيخ الرئيس من المكررات وينفع من داء المفاصل وعرق النسا».

﴿ الأصفر ﴾ إختصار «للإهليلج الأصفر» ويقال «هليلج» بلا همزة معرب «هليلة» بالفارسية. ثمر شجر من الفصيلة الكومبريتية ينبت في جزائر الهند الشرقية واللاير اسمه النباتي Terminalia citrina, roxb وبالانكليزية Hara Nut وبالفرنسية Myrobalan Citrin وهذا الشجر يستعمل في الدباغة والصباغة وإذا أخذ ثمره يابساً أحدث اسهالاً خفيفاً.

﴿ الأمبرباريس ﴾ يوناني معرب ويقال «الأنبرباريس» و«البربارين» وبالفارسية «الزرشك» شجيرة ذات شوك من الفصيلة البربرية تنبت برياً في أوربا وتزرع أيضاً في الحدائق والسياج للتزيين وبالأخص عندما تكسوها وفرة من الأزهار الصفر أو الثمار الحمر اسمها النباتي Berberis vulgaris, L. وبالانكليزية Barberry وبالفرنسية Epine—vinette. والثمار رطبة حامضة لاشتمالها على الحامض الأوكساليك ولذلك يرغب فيها بايطاليا وغيرها لعمل الربيات. وجذرها الغلي في ماء القلي واللحاء الداخلي من ساقها ينتجان صبغاً أصفر فاخراً ويستعملان دواء قابضاً.

﴿ الإبكر ﴾ فارسي معرب ويقال له باليونانية «أكارون» akaron وهو «الوج» و«قصب الذريرة» في مفردات ابن البيطار نبات كالبردي من الفصيلة القلقاسية ينبت في المنطقة الشمالية المعتدلة اسمه النباتي Acorus Calamus, L. وبالانكليزية Sweet Flag وبالفرنسية Acore Odorant; Roseau Odorant أو ومنه عطرية تدخل في صنع مسحوق الشعر وفي الطيب الأخر وبائعو الحلويات يصنعون منها قنداً وتدخل في صناعة الشراب المعروف «بالبن» وفي الجعة (البيرة). واذا سحق النبات بأكله فاحت منه رائحة طيبة وهو ضرب من الأدوية.

وقد يطلق الابكر أحياناً على أصل نبات آخر من جنس السوسن من الفصيلة السوسنية ينبت في أوربا وشمال آسيا اسمه النباتي Iris Pseudacorus, L. وبالانكليزية Yellow Iris وبالفرنسية Iris des Marais تستعمل بزوره المحمصة عوضاً عن القهوة وهي مدرة للبول ومسهلة ومقيئة.

باب المراسلة والمناظرة

لبنان ومصر [1]

النص الرسمي للخطاب الذي ألقاه صاحب العزة الدكتور طه حسين بك في الحفلة التكريمية التي أقامها له معالي نائب رئيس مجلس الوزراء وزير التربية الوطنية الأستاذ حبيب أبو شهلا .

سيدي صاحب الدولة الرئيس ، سيدي صاحب المعالي الوزير ، سادتي :

يقول المثل العربي القديم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . ولم أشعر قط بصدق هذا المثل كما أشعر به الآن . فقد كنت أعلل نفسي سعيداً بأن أهل هذه البلاد الكريمة يحسنون الظن بي ويضيفون إليّ شيئاً من فضل، لأنهم يسمعون بي أكثر مما يرونني . ثم أراد فضلكم العظيم أن تستقبلوني وتحتفوا بي هذه الليلة وتتفضل معالي وزير التربية والتعليم فأهدى إليّ هذا الثناء الجميل الذي سمعتموه وهأنا ذا أنهض لأؤدي بعض ما يستوجب هذا التفضل من الشكر، فإذا أنا مقصر لا أقدر على شيء، ومفحم لا أجد ما أقول، ومصدر هذا العي أمران : أولهما أني أعجز الناس عن الشكر حين تهدى إليّ النعمة ، ويسدى إليّ الجميل، لأني أرى كل ما يقدم إليّ من فضل أعظم مما استحق وأجل من أن ينهض به الشكر . فأنا في رأي نفسي أقل جداً مما يظن الذين يتفضلون عليّ بالثناء . وتقولوا بأني لا أقول هذا تواضعاً ولا تكلفاً للتواضع ، وإنما هو رأيي في نفسي وفي كل ما يصدر عني من قول وعمل . وأقسم ما أتيت شيئاً من الأمر وما قلت شيئاً وما كتبت شيئاً إلا وهو في نفسي أقل مما كنت أريد وأهون جداً مما يرى الناس فيّ ومما يتفضلون به عليّ من ثناء . الأمر الثاني: أني لا أرى نفسي إلا فرداً من الأفراد ، وعمل الأفراد مهما يكن أهون من أن يحتفل به أو يؤبه له . لذلك أعتقد أن ما تتفضلون به عليّ الليلة من احتفاء إنما هو موجه إلى مصر . ومن حق لبنان أن يكون لمصر حفيًّا ، ومن حق مصر أن تحفي بلبنان ، فإن الأمر بينهما على ما فيه من رفع الكلفة خليق بالاكبار حقيقا . فهذان الوطنان الكريمان قد تعاونا دائماً على الخير ، وتظاهرا دائماً

(١) الدكتور طه حسين بك قالها في حفلة تكريمه في لبنان

على تحقيق المنفعة الانسانية الكبرى ، وأؤكد لكم ان التعاون الخصب بين مصر ولبنان أقدم عهداً وأبعد مدى مما يظن المتجاهلون في الحكم .

فنحن لا نكاد نرى وطنينا في فجر التاريخ القديم إلاّ متعاونين على الخير متظاهرين على نشر الحضارة والثقافة . ولقد كانت ممفيس والاسكندرية يعملان على نشر الحضارة والثقافة والمعرفة متعاونتين على ذلك مع صور وصيدا كما تتعاون القاهرة الآن مع بيروت على نفس هذا الغرض النبيل . فالود بين مصر ولبنان قديم ، والتعاون بين مصر ولبنان بعيد المدى ، عظيم الخطر ، لا يقتصر نفعه عليهما وحده . بل يتجاوزهما إلى جميع الأوطان التي تحب الحضارة وتريد أن تنتفع بها . وما دام الأمر قد جرى على هذا النحو في الماضي فمن الطبيعي أن يجري عليه إلى أبعد آماد المستقبل ، فانه قانون طبيعي من قوانين الجوار بين هذين الوطنين الكريمين . فلا غرابة اذاً في أن يتبادلا الثناء ، ويتهاديا المعروف ، ويقدرا كل منهما لصاحبه نصيبه في تحقيق المنفعة الانسانية العليا .

وقد تفضل حضرة صاحب المعالي وزير التربية والتعليم فأثنى على ما لي من مشاركة في الهدف ومن حظ في الانتاج الثقافي والأدبي . فاسمحوا لي أن أعيد عليكم حقيقة من الحقائق الأولية في تاريخ الأدب العربي الحديث ، ولكني أرى أن تكرارها واجب لأنه أداء للحق واعتراف بالفضل لاصحابه ، وهي أن الأدب الحديث في مصر وفي الشرق العربي كله مدين بنهضته لعلمائكم وأدبائكم الذين سبقوا في القرن الماضي إلى العناية بدرس الأدب العربي القديم واحيائه كما سبقوا الى توثيق الصلة بين العقل العربي الشرقي والعقل الأوربي الغربي . وأنا رجل أنفقت حياتي في التعليم وتعوّدت ألاّ أرسل الأحكام عفواً دون أن أقيم عليها الأدلة . وما أحب أن ألقي عليكم الآن محاضرة في تاريخ الأدب العربي الحديث فانما يكفي أن أذكر بعض الأسماء فذكرها يغني عن كل دليل . يكفي أن أذكر اليازجي والبستاني وصرّوف وزيدان وأن أذكر الضياء ودائرة المعارف وترجمة الاباذة والمقتطف والهلال . فهذه الأسماء كلها واضحة الدلالة على ما فات من أن علماءكم وأدباءكم سبقوا الى احياء الأدب العربي وتحقيق الصلة بينه وبين الآداب الأوربية الكبرى . فمن زعم لكم من أدباء الشرق العربي المعاصرين انه ليس مدين للبنان بشيء من أدبه ، فهو منكر للحق كافر للنعمة جاحد للجميل

سادتي : ان كثيراً من الناس يزورون بلادكم الجميلة في فصل الصيف ويلتمسون فيها الراحة والاستمتاع بجمال الطبيعة ، وأنا أشاركهم في هذا ، ولكن أخص نفسي بمتعة لا يكاد يشاركني فيها أحد . فأنا لا استمتع في بلادكم بطبيعتها الرائعة ونسيمها العذب وثمراتها المختلفة المتشابهة الحسن . وانما استمتع فيها بأدب رائع غض فيه لذة للنفس وحياة للقلب

وتغذية لعقل . واذا كان الجيل المعاصر قد أعرض عن صنة الجيل الماضي في احياء الأدب القديم والتعمق في دراسته ، فان له من الأدب الرفيع حظاً عظيماً سواء في ذلك الشعر والنثر . ثم انا لا استمتع بأدبكم الذي يتخذ اللغة الفصحى أداة للتعبير فحسب ، وانما استمتع بأدبكم الشعبي الرائع الدقيق النفاذ .

فاذا أنعمتم عليّ بأن لي حظاً من أدب ، فانما تمنون على أنفسكم ، لأني مدين لكم بهذا الأدب . وكم كنت أريد أن أؤدي اليكم بعض ما لكم من حق ، وأن أشكر لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية فضله العظيم ، ولحضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء عطفه الكريم ، ولحضرة صاحب المعالي وزير التربية والتعليم كرمه الجم وثناءه العذب وجميله الذي طوقني به تطويقاً معنويًا قبل أن يطوقني به تطويقاً ماديًا كما ترون ، ولكن لساني كله هذه الأيام السعيدة التي أقضيها فيه ، ولكني كما ترون عاجز عن أن أبلغ ما أريد . وأنا مع ذلك معروف بطول اللسان ، ولكن ربّ نعمة قصرت أشد الألسنة طولاً ، والواقع أن نعمكم قد أخرستني فليتولّ الله شكركم عني فانه على ذلك قدير .

حول كتاب محمد عبده

للدكتور عثمان أمين

حضرة رئيس تحرير المقتطف

قرأت في باب مكتبة « المقتطف » (ص ١٨٥ عدد فبراير سنة ١٩٤٥) ما تفضلتم فخصصتم به كتابي عن « محمد عبده » الذي ظهر في مجموعة أعلام الإسلام منذ شهور .

وإني مع وافر شكري لجميل عنايتكم بالكتاب وحسن ظنكم بمؤلفه ، أرجو أن تسمحوا لي بكلمة موجزة رداً على بعض الملاحظات التي أوردتموها في آخر المقال .

لاحظتم أنني لم أتعرض في كتابي للكلام عن صلة محمد عبده بالحركة العلمية التي ظهرت في الغرب وفي الشرق بقيام مذهب التطور والنشوء . وهذا حق ، فانني أغفلت الكلام عن هذه المسائل وأشباهها في مذهب محمد عبده ، لأني إنما أردت أن يكون كتابي في « أعلام الإسلام » تجلية لسيرة الأستاذ الإمام . أما الخوض في فلسفة محمد عبده وآرائه الدينية والاجتماعية ، فقد جعلت له مؤلفاً آخر مستفيضاً ، كتبته بالفرنسية منذ سنوات في « آراء محمد عبده الفلسفية والدينية » وهو البحث الذي قدمته إلى جامعة السربون لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة ، وتقوم الآن بطبعه وزارة المعارف .

وقلتم حضرتكم ، في معرض الكلام عن موقف الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الافغاني من أنصار مذهب « التطور » إن « الخطوة التي خطاها السيد والشيخ كانت خطوة علمية ولكن إلى الوراء ... والحق إن الكلام في ذلك كان خارجاً عن مجالها ، فلم يصيبا فيه ولم يوفقا في قصدهما التي وجهاها إلى المذهب الذي قلب نواحي الفكر في القرن التاسع عشر » .

وملاحظتي على هذا القول أنه إن صحّ إلى حدٍّ ما بالقياس إلى السيد جمال الدين ، فليس يصح مطلقاً بالقياس إلى الشيخ محمد عبده : فإن الاستاذ الامام كان موقناً بحقيقة التطور ، مناصراً له على نحو لم يسبق اليه . وأكثر من هذا أنه أراد ان يطبق معاني ذلك المذهب ، ولكن في صورة روحية ، على العقائد الإسلامية ، وأن يجعل له في تفسير القرآن نفسه مكانة ظاهرة ، وهذا ما أخذه عليه بعض المحافظين من الازهريين . بل إن للشيخ لطريقة طريفة في فلسفة التاريخ الديني ، يتجلى فيها هذا الاتجاه بوضوح ، وقد تناولها بالعرض والنقد في فرصة أخرى . وهذا وكثير غيره قد بسطته في بحثي الفرنسي الذي أشرت إليه ، وستظهر ترجمة له عن قريب .

بقي أنكم استدركتم على لفظ « اللاهوتي » الذي استعملتهُ وصفاً للاستاذ الإمام باعتباره صاحب مذهب في الدين . وقد آثرتم حضرتكم أن يترك هذا الاستعمال للكلام في اللاهوت المسيحي ، وذهبتم إلى أنه « لا يوجد لاهوتية في الإسلام ، ولا يوجد لاهوتيون عند المسلمين » .

ولكني أعرف أن الدين شيء واللاهوت شيء آخر ، وأن الدين يسبق اللاهوت : ذلك أن الاتصال الديني وإدراك الأمور الإلهية بالحدس الغامض ، عملان سابقان على عمل الفكر الذي يروّي ويتأمل مسائل الدين . فاذا صح أن في المسلمين ، كغيرهم من أهل الأديان ، مَنْ يشعر شعوراً دينيًّا ، ومنهم مَن يفكر في المسائل الدينية تفكيراً عقليًّا ، فلست أرى وجهاً لأن نقصر استعمالنا للاهوت على التفكير في الدين المسيحي . (١)

ولعلكم حسبتم أن اللفظ لم يستعمل في لغتنا العربية كما استعمل في اللغات الأفرنجية . ولكن الواقع أن لدينا نصوصاً كثيرة ورد فيها ، وبخاصة عند المشتغلين بتاريخ الملل والنحل من مؤلفي العرب . يضاف الى ذلك أن لأهل التصوف من المسلمين نظريات معروفة في

(١) من غرائب الصدف أني وجدت حضرة الاستاذ نفسه ، في كتاب له ، يصف الشيخ محمد عبده بقوله « كبير لاهوتي مصر في القرن الماضي » ! (« الى السبيل » ص ١١٢) .

التفريق بين ما يسمّونه « عالم اللاهوت » و « عالم الناسوت » .. الخ ، ولا يسمح المقام بالخوض فيها . فاذا كان اللفظ مستعملاً في اللغة العربية ، وكان المعنى الذي يؤديه معنىً عامًّا لا يقتصر على دين خاص ولا يختص بملة بعينها ، فليس العدول عنه إلى غيره ؟

ولا يسعني أخيراً إلاّ أن أوجه أصدق التحية والتقدير لأدبكم العالي في النقد ولفنائكم البارعة في العرض والسلام

دكتور عثمان أمين

تتمة لبحث العرب عرفوا أميركة

جاءنا من حضرة الأب أنستاس ماري الكرملي الكلمة الآتية :

زارني الأستاذ محمد عبد الجواد الاصمعي ، من كتبة دار الكتب المصرية في ٢٠/١/١٩٤٥ فذكرت له ان مجلة المقتطف تنشر مقالا في جزء فبراير عنوانه : « عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب » . فقال : وهل ذكرت في هذا الصدد ما جاء في الجزء الاول من مسالك الابصار ص ٣١ المطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤ ؟ قلت لا . وما هذا النص ؟ قال : سأنقله لك نهار غد وأبعث به اليك . وفي اليوم جاءني ودونك نصه :

« تخيل علماء الاسلام لوجود أميركة قبل اكتشافها بقرن ونصف »

« وقال شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الاصفهاني امتع الله به .

« لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا ، منكشفاً من الجهة الاخرى . وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة ، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى[1] والذي ظهر لنا من ذلك عقلاً ونقلاً ذكرناه . وبالله التوفيق .

هذا ما ورد في الجزء الأول من مسالك الابصار وتعليق المرحوم شيخ العروبة زكي باشا على هامش ما أورده . فأرجو إحقاقاً للحق وخدمة للتاريخ الاشارة إلى هذا . وتفضلوا بقبول وافر الاحترام

محمد عبد الجواد الاصمعي
بدار الكتب المصرية

---

(١) للاصفهاني (وهو يعبر افضل السبق على كرستوف كولومب (وهو بالاندلس) لانه قال بهذه النظرية بقرن ونصف قرن . وللاصفهاني فضل أكبر على مكتشف أميركا : لانه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال . وأما كولومب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل اليه من جهة الغرب . توفي ابو الفدا في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨) م وأما كولومب فقد اجتهد في اقناع فرديننند وايزابلا صاحبي الاندلس بصحة نظريته في سنة ١٤٩٢ ميلادية (الموافقة لسنة ٨٩٨ هـ)

مكتبة المقتطف

خمسة كتب للاستاذ اسعاف النشاشيبي بك

١ — قلب عربي وعقل أوربي

خطبة ألقيت في دار الجمعية الاميركية في بيروت سنة ١٩٢٤ ، وكأني بالاستاذ الكبير قد تنبأ في هذه الخطبة بما سيحدث في العالم العربي من الاحداث الجسام بعد عشرين سنة . فقد رأينا كيف يعمل العرب على اقامة جامعتهم العظمى بقلوب عربية وعقول أوربية ، فيجتمع للعرب بذلك مجد العمل على نشر ما اقتبسوا من قوائم العرب والعروبة ، مسايرين في ذلك مقتضيات المدنية الاوربية الحديثة . ولعمري إن في هذا لحياة كم تمناها العرب وكم حلموا بها منذ أجيال ، فاذا حققت اليوم فان تحقيقها إنما يرجع الى القلوب التي حنت عليها والعقول التي فكرت فيها ، والاستاذ النشاشيبي بقلبه العربي الكبير وعقله الاوربي الناضج أحد الذين مهدوا بأرواحهم الكبيرة سبيل هذه الجامعة .

وقد رمى في خطبته هذه الى الاستمساك بآداب المدنية الاوربية والعكوف على درسها واستيعاب روحها العليا — فانها على حد قوله — الملجأ الذي يحمينا عقاربها والقوة التي تبعد عنا شرهم وضررهم وتجلب علينا خيرهم قال :

« فالعربي الذي يكرّه الينا هذه المدنية ويثلب علمها ونظامها وفنها ويسخر من روادها ، لا يروم أن نحيا في هذا الوجود أو أن نسود ، بل يريد أن نبيد ، أو أن نعود في الناس مثل العبيد . وهذا عدو ، وما نفى عدو لعدوه خيراً . والعدو نحرز منه وإن نصح فهي نصحه ورب الحية . أو صديق ضال جاهل الحال فقال . واذا حمق صديقك ، أو ضيع عقله ، فتصدق به على ابليس »

٢ — مقام ابراهيم

خطبة القيت في حفلة التأبين الكبرى التي أقامها رجال الكتلة الوطنية في الشام لفقيد العرب البطل المجاهد ابراهيم هنانو ، وهو قائد الثورة السورية في أعقاب الحرب العظمى، فلما هدمت قنابل الفرنسيين أنحاء من دمشق خرج ابراهيم الى البادية ومعه أبطال من العرب شنوا عليهم الحرب ، ثم نزل فلسطين بوعد من الانجليز ، انه آمن فيها ، ثم سُلِّم برغم ذلك الى السلطات الفرنسية ، فقتل ومات بطلاً جديراً بما في دمه من نخوة اجداده الأولين.

وهذه الخطبة مرثية تفيض ايماناً وقوة ووطنية جديرة بأن تصدر من قلم رجل يعد في عصرنا هذا من طراخنة الأدب المتقدمين .

***

٣ — العربية وشاعرها الاكبر احمد شوقي — اللغة العربية والاستاذ الريحاني — العربية في المدرسة

ثلاثة موضوعات تناولها هذا الكتاب الفذ وغرضها هدف واحد ، هو أن اللغة العربية لغة مدنية لا لغة بدوية . والمعنى المرموق من هذا ان اللغة العربية فيها المقدرة على خدمة المعارف والعلوم والفن والحكمة ، وانها قادرة كل القدرة على مسايرة المدنية الحديثة كما سايرت المدنية التي سبقتها ، وانها كما استطاعت أن تنقل كنوز اليونان والرومان ووسع صدرها أعظم نتاج أخرجه الفكر الانساني في المدنيات القديمة ، كذلك هي تسع نتاج الفكر الحديث . وفي الواقع أن هذا القول صحيح من جميع الوجوه ، وان الذين يذهبون غير هذا المذهب ، إنما هم بعيدون عن العربية وعن أسرارها المخبأة في بطون الكتب . وقد ضرب الاستاذ على ذلك الأمثال وساق من الأقوال ما يقنعك بأن لغة العرب أوسع اللغات ، جميعاً ، وأغزرها بالمفردات والاساليب .

***

٤ — البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي

هذا الكتاب صرخة داوية خرجت من أعماق قلب يؤمن بالاسلام والعرب . ففي بحثه الأول في صلاح الدين الأيوبي يريك كيف انتصر العرب المسلمون على أهل الحروب الصليبية في وقعة حطين ، وهي الوقعة التي قضى فيها جيش الشرق على جيش الغرب . وفي بحثه الثاني قرن شاعرنا شوقي بالشاعر الخالد العظيم أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي، وأظهر بأدلة الجم وسعة علمه ، ان الشاعر شوقي هو سيد شعراء العصر غير منازع ، وساق الكلام في بحثه

سوق العارف المطلع ، فأبرز فيها صوراً لو ترجمتها ريشة الفنان في لوحات لخرجت فنًّا رائعاً يهزّ نفسك ويبعث فيك روح العرب والعروبة ، روح الحرية التي دان بها العرب منذ أقدم عصورهم ، تلك الحرية التي كانت قبل الاسلام وبعده ، وقبل النصرانية وبعدها ، وقبل الموسوية وبعدها ، طابع العرب الخالد ، وستظل طابعهم إلى آخر الدهور .

***

٥ — البُستان : كتاب الاستظهار للمدارس الأولية والابتدائية

هذا الكتاب نسيج وحده بين الكتب التي عُني أصحابها بتهذيب الطلاّب الناشئين . وهو نسيج وحده لأنه من صميم أدب العرب المأثور ، ومن كلام فصحاء العرب شعراء وناثرين ، وهو بنسجه هذا خير ديوان يدخل أدب العرب في نفس الناشىء غير محسّ انه من مأثورات الأدب القديم ، ويطبع ألسنتهم بأسلوب قويم صحيح العبارة مختار اللفظ . وحسبنا أن نقول فيه أنه من اختيار أديب العرب ، من أدب العرب ، لأبناء العرب .

ولا جرم اننا إذا دعونا المربين إلى الانتفاع بهذا الكتاب الثمين ، الذي يصح أن يكون متعة للناشىء والمتأدب معاً ، فانما ندعو واثقين أن خير ما يربّي العربي أدبه ، وخير ما يسرّد العربي روحه . وفي هذا الكتاب من أدب العرب وروح العرب ، ما يكمل الناشىء تربية عربية صحيحة .

التعليم الريفي والزراعي في تركيا الحديثة

بقلم حسن احمد السلمان : مطبعة النفيس الاهلية — بغداد — ٦٠ صفحة من القطع الكبير

وقد تناول فيه الأستاذ مؤلفه ناحية من النواحي التي نجح اخواننا الأتراك في معالجتها نجاحاً مقطوع النظير ، والكتاب من أنفع الكتب التي تنير سبيل نشر التعليم الذي يحتاج اليه أهل الريف مقروناً بمعلومات قيمة في الزراعة العلمية . وهذا ضرب من الاصلاح يجب أن يصرف فيه من الجهد والمال ما يجدر بأمم الشرق جميعاً أن لا تضن به . وقد عرض فيه مؤلفه الفاضل الى التعليم الريفي الابتدائي وأتى على قانون التعليم الريفي ومنهج التعليم وبناء المدارس الريفية ولوازمها وأثاثها والامتحانات والتفتيش على المدارس ومميزات التعليم الريفي ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الكلام في معاهد اعداد معلمي الأرياف ثم إلى الكلام في التعليم الزراعي المتصل بالتعليم الريفي .

وقد حلّى الكتاب بكثير من اللوحات والجداول البيانية التي تتم الفائدة المرجوة منه. والواقع ان هذا الكتاب جدير بأن يطلع عليه كل المشتغلين بنشر التعليم في الشرق العربي .

رابندرانات تاجور : والوحدة الروحية

بقلم محمود الخفيري — ١٠٢ صفحة من القطع الكبير —
طبع مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٣

الأدب الشرقي فلسفة روحية ، والأدب الغربي فلسفة مادية . وفي أدب طاغور المثل الأعلى لأدب الشرق الروحي . وفي فلسفة نيتشه وأضرابه المثل الأعلى لأدب الغرب المادي. وبين الأدبين ، وان شئت فقل بين الفلسفتين ، ذلك الصدع الذي تلمسه في هدوء النفس الشرقية وتساميها عن الماديات ، وفي ثوران النفس الغربية التي تتلمس الآن مراجلها في أكثر قارات الأرض . ولقد أرسل طاغور من قبل نبوءته الكبرى ، نبوءة ان الغرب اذا لم يعد الى فلسفة الروح أكلته المادة ، وسوّت عليه القوة الغاشمة ، وطاحت به مطامع النفوس الغليظة . ولا شك في أن هذه الحرب التي رمى مشعلوها الى استعباد أهل الأرض وتسخيرهم لمطامع المادة ، قد ضربوا المثل وزوّدوا الغرب بالموعظة ، فكانت أول صرخة من الغرب تسمعها إبان الحرب ، إنما هي صرخة الحرية التي هي عنوان الروح ، بل استصرخ الغرب أمم الشرق ، ورجع زعماؤه الى مبادىء الانسانية العليا ، يقولون بأنها نصيب الجميع وحق الجميع ، حق القوي وحق الضعيف ، حق الكبير وحق الصغير . لم يقولوا بذلك الا لما أدركتهم الغاشية ، غاشية الحرب والدمار والموت . بل قل غاشية المادية الخسيسة . لم يسمع الغرب صوت الشرق ، بل انه لم يسمع صوت طاغور في تبتله إذ يتوجه الى الملأ الأعلى ينشد سلام الروح فيقول :

جُدْ عليَّ بشعاع مُنْبَجِسٍ من كَلِمات غمراتك وأيقظ روحي .

أو وهو يقول :

يا ميسماً على جميع الأمم وإن اختلفت ألوانها ، وحِّد بين قلوبنا وألهمنا تبادل المحبة .

لا أزيد على هذا شيئاً في التعريف بصفة هذا الكتاب الذي ينبغي أن يكون بين يدي كل انسان ينشد سلام النفس وصفاء الروح . انك إذا قرأت هذا الكتاب فانك لا تقرأ طاغور ، وإنما تقرأ الروح في أسمى معالمها وأزكى نزعاتها . انك لا تقرأ طاغور وانما تقرأ روحك إذ تستيقظ ، ونفسك إذ تتجلى وتشرق .

ولكني أزيد فوق ذلك كلمة في أسلوب الكتاب ، فان كاتبه الفاضل قد استمدّ الأسلوب الذي أداه به من إشراقة روحية ، فاض عليه بها الشاعر الالهي طاغور .

عطر ودخان

تأليف الكاتب القصصي المعروف محمود تيمور ، نشرته لجنة النشر للجامعيين

١٧٦ صفحة من القطع الصغير

مقالات قصيرة فيها الفن والقصة والخيال والوصف والتأمل . عالج فيها الاستاذ محمود تيمور كثيراً من نواحي الاجتماع وبرّز النابرز كله في وصف بعض الشخصيات المعروفة من أهل هذا الجيل وإنك إذ تقرأ له ما تناول به هؤلاء ، لا تعرف ، إذا وضعت نفسك موضعه ، كيف تخلص من موقف بعد موقف وهو يتناول هذه الشخصيات ، فلا تحرج نفسك ولا تحرج صاحبك . ولكن الأستاذ تيمور يستطيع بلباقة القصاص الماهر أن يدور بك دورة فلا تلبث أن تجد نفسك أمام تيمور وصاحبه متصافحين متصافحين ، وكأنهما لم يقعا قط على مقدار ما يغضب من مقدار ما يرضي . وهذه مقدرة الفنان القاص الذي يعالج أعقد المواقف بلباقة العالم الرياضي ، الذي يضع أساس المعادلة الجبرية ، فلا تخرج منها إلاّ بالنتيجة التي يبغيها . وإني لأعلم علم اليقين أن غير تيمور ، لو تناول شخصية وأراد تحليلها ليصل الى مثل ما يصل اليه ، اذاً لتوانيا ثم فقأ الناقد عين المنقود ، وجدع المنقود أنف الناقد ، وانجلت الموقعة عن ضحيتين ، وقعتا على كل ما يغضب ، ولم يعرفا قط ما يرضي .

ولهذا الكتاب ميزة ما يكتب تيمور من سلاسة العبارة وحلاوة الأسلوب وهدوء الطبع ، وجيد لو انتحى الاستاذ المؤلف هذا المنحى ، فانه ولا شك يضيف الى أدبه بحراً أدبياً محبباً شهيّ المأخذ حلو الأداء .

الأخلاق والواجبات

للاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية ، ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير

كتاب مدرسيّ في تهذيب أخلاق الناشئة الاسلامية يجمع بين حاجة التربيّ والمعلّم ، فيه كلمات جامعة وأقوال في الحِكَم والآداب ، وقد اقتصر فيه مؤلفه الفاضل على اقتباس ما ورد في الكتاب السماوي والحديث النبوي ، اللهم إلاّ ما جاء عرضاً من أقوال الحكماء ، مما يلتحم معناه مع معنى الآية والحديث . والكتاب مفرغ في قالب حسن وأسلوب سهل المأخذ قريب التناول ، وقد عُلّق عليه من الشرح والتفسير ما تستدعيه الحاجة ، ويتطلبه ذهن الطالب .

والكتاب من أحسن كتب التهذيب الخلقي ، وفيه من المثل ما يخاطب النفس والعقل ، وفيه من الحكمة ما يرضي الأديب وطالب الأدب .

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

الصمامات الكهربية

الصمامات الكهربية أنابيب مفرغة من الهواء كالتي يحويها المذياع — وهي تساعد على تسهيل النقل بوسائله المعروفة ، على اختلاف أنواعها . وسوف تصير منفعها من عوامل الانقلاب الذي ينتظر حدوثه عقب انتهاء الحرب الحالية ، ومنها أجهزة الرائد اللاسلكي [1] الصغيرة الحجم . وهذه تقوم بمنع اصطدام السيارات بعضها ببعض كما تحذر راكب السيارة من العربات التي تكون قادمة من طريق خفي مقاطع لسيره .

مصابيح لاشارات المرور في السيارات

وستصنع لوحات أجهزة قيادة السيارات المركبة في صدورها ، محتوية على مصابيح كهربية صغيرة ذات ألوان حمر وخضر تقوم للسائق مقام « لافتات » المرور في الطرق العامة . وستكون هذه اللافتات مصحوبة بنغمتين موسيقيتين هما — قف — و« سر » فلن تبقى حينئذ حاجة الى وجوب التفرس في مصابيح الاشارات التي قدامه ليستشرف [2] أضواء المرور واشاراته التي ربما تختلط بلوحات الاعلانات الكهربية الملوّنة بإنارات النيون والارغون والزئبق . أما في الظلمة فتقوم المصباحات الكهربية التي تركب في السيارة باضاءة مصابيحها من تلقاء ذاتها حينما تجب إضاءتها . وبذلك يتمكن السائق من تلقي الارشادات الخاصة بسلامة سيره عن طريق المذياع الذي تجهز به سيارته . وذلك عند دنوه من الموصلات الكهربية اللاسلكية المحلية (إدريال) المستكنة في طوار [3] الشارع الذي يسير فيه اذ تحل تلك الموصلات الخفية محل فوانيس اشارات المرور الشنيعة المنظر . أما السياح الذين يجوبون آفاق البلاد فعليهم تحويل زمام سياراتهم صوب الخط الأبيض الذي تضيئ لهم المصباحات الكهربية في طريقهم ، إقتداء بقادة الطائرات الذين

(١) يرى كاتب هذه السطور أن خير ما يترجم به لفظ radar هو الرائد اللاسلكي (٢) استشرف الشيء رفع بصره لينظر اليه (٣) الطوار — ما كان بحذاء البيت أو على حده — رتوار

يسترشدون في طيرانهم بالأجهزة الأوتوماتيكية التي توجههم الى أهدافهم . ولا غرو فالعيون الكهربية المبثة على قوارع الطرق الرئيسية الاميركية تضطلع الآن من تلقاء نفسها بتقدير سرعة كل سيارة تمرّ بها وتعلنها نرًا للشرطة أو للسائقين أنفسهم ليرعووا عن مجاوزة السرعة المقررة . وذلك باشارات كهربية

الراديو المصور في السيارات

وسيحل يوم عقب الحرب الحالية يستطيع فيه صاحب السيارة طبع جريدة صغيرة الحجم إذ يكون مضطجعاً على مقعد سيارته وذلك بالموجات اللاسلكية

وكذلك يغدو في وسعه وهو بعيد عن العمران رؤية صور الوقائع والحوادث عن طريق الراديو المصور الذي تجهز به سيارته .

الراديو والأجهزة الكهربية في القطرات

وقد أدخلت حديثاً مجالس إدارات شركات سكك حديد الولايات المتحدة الاميركية لتنبط أهالي بلادها الخاص باتخاذ الوسائل الفعّالة لمنع حوادث التصادمات المروّعة فأمرت بتركيب الراديو والأجهزة الكهربية في قطراتها ابتغاء سلامة ركابها . وكان ذلك نتيجة حادث فظيع ذهقت فيه أرواح كثيرة حينما أوفد رجال الاشارات (الاشرجية) لوقف قطرات سريعة كانت قادمة إلى إحدى المحطات (على خطوط مشغولة) فأخفقوا فوقعت الطامة . ولذلك ركبت في قطرات الشركة تليفونات لاسلكية لتخاطب بها القطرات بعضها بعضاً كما تخاطب مركز الرياسة المشرفة على تسييرها . وبهذه الوسيلة يستطيع مهندسو القاطرات ومديرو القطرات الاتصال دائماً اتصالاً شخصيًّا وثيقاً بعمال القطرات القريبة منهم جميعاً . وهذا مما تترتب عليه سلامة الركاب وسرعة تأخير القطرات ثم ابطال الطريقة العتيقة التي تقضي بايفاد (الفرملجي) حاملاً فانوسه أو رايته محذراً من الخطر الداهم حيث يقطع ميلاً وأكثر ويستغرق وقتاً ثميناً ربما يعود . ومع أن كل سفينة وطائرة على اتصال دائم بالعالم وذلك بالتليفون والتلغراف اللاسلكيين فان عمال القطرات يصيرون في عزلة تامة عن المكونة حينما تسير بهم قطراتهم ناهبة الارض نهباً . ومثال ذلك ان الراكب الذي يسافر من محطة نيويورك الى محطة شيكاغو بالقطار السريع الفاخر المسمى (الطيار) يتمتع بوسائل الراحة والرفاهية جميعها بيد انه يحرم في خلال تلك الرحلة ، الاتصال المباشر بآله وصحبه ، كمن يطوي البيد طيًّا على متون الابل . بينما الراكب الذي يحظى بالسفر في أحد القطارين الاميركيين « القرن العشرين » أو « برودواي ليمتد » يستطيع

في أثناء سفره مباشرة أي عمل من أعماله الضرورية مع عماله وعملائه في طول البلاد وعرضها وذلك بوساطة التليفون اللاسلكي المركب في قطاره . ولذلك وجه المخترعون الاميركيون همهم الى اختراع أجهزة كهربية للاشارات التي تحتاج اليها أعمال السكك الحديدية بغية تسهيل القطرات بلا أدنى تأخير ، على عكس ما هو جارٍ الآن

التليفون اللاسلكي في قطرات البضائع

ومن التحسينات التي تمت هناك في قطرات البضائع ، تركيب أجهزة للتليفون اللاسلكي توصل سائق القاطرة بعربة الفرملجي في القطار . وهي من ثمرات الحرب الحالية التي ستستعمل دائماً عقب انتهائها وذلك في القطرات المدنية .

المذياع في حجر استراحات المحطات

وحتى حجر الاستراحات في محطات سكك حديد المدن الصغيرة الخالية من وسائل الترويح عن النفس ، ستجهز بأجهزة الراديو لاذاعة الموسيقى والاخبار التي تخفف عن روادها سأم طول الانتظار ، وستكون تلك الاذاعات مصحوبة بمواعيد قيام السفن وعودتها ، وبكل ما يهم الركاب الوقوف عليه في غضون أسفارهم في السكك الحديدية بحيث تتم هذه الأعمال جميعها بأقل النفقات إذ تستعمل فيها أجهزة التلغراف الحالية وأسلاكها دون إحداث اضطراب في عمل التلغراف العادي .

العيون الكهربية في أفنية بضائع المحطات

هذا وستركب أيضاً البصاصات الكهربية على خطوط عربات البضائع الوافدة لتقوم من تلقاء نفسها حين دخول القطرات الحاملة البضائع الى المحطة بنقل أرقام كل عربة حين مرورها أمامها ثم تطبعها في سجل المشرف على فناء المحطة ولا سيما في الليالي الحالكة القارصة البرد فيستغنى بها عن المال المختصين الذين يؤدون أعمالهم حاملين فوانيسهم لتضيء لهم الطريق وتبين أرقام تلك العربات ليقيدوها في السجلات الخاصة بها .

صمام الامن البشري

تعتمد الآلة البخارية العصرية اعتماداً كبيراً على الصمامات الاوتوماتيكية التي تؤدي وظائفها على خير وجه لكي تسير الآلة سيراً صالحاً وتفي المرام . والواقع أن أتقن صمام في العالم هو الذي اخترعته الطبيعة لغاء صالح للأجسام البشرية كل الصلاحية وذلك منذ

بدء الخليقة حتى الآن وإلى الأبد أي من قبل أن يفكر أي مخترع في اختراع الآلات البخارية أو يحلم أي انسان بالمحركات الغازية وهذا الصمام البشري الذي يكفل سلامة الانسان هو « لسان المزمار أو اللهاة » . ولعل كثيرين من القراء يعرفون وظيفة ذلك العضو إذ هو كما من خلف الفم حيث يمر الهواء ويعترضه الغذاء . ووظيفة اللهاة هي القيام من تلقاء نفسها باغلاق القصبة الهوائية « قصبة الرئة » في كل مرة حينما نبلع الطعام ولو عجزت اللهاة عن الاضطلاع بذلك المهمة لاستطاعت خنقنا كل دقيقة من دقائق حياتنا . فهذا الصمام البشري يؤدي عمله الاوتوماتيكي إذن لغاية الاحكام خير من أي صمام اخترعه الانسان لاية آلة عرفت حتى الآن .

عوض جندي

ألغاز العلم

(تابع المنشور على الصفحة ٣٠٢)

وقد وجد علماء النبات والحيوان ، بعد درس تباينات متعددة في أصناف شتى من النبات والحيوان . ولكن ما شاهده هؤلاء العلماء من التحولات الفجائية قليل لا يكفي لتعليل نشوء أنواع النبات والحيوان التي تعدّ بالملايين ، خلال القرون المتطاولة

ثم طلع فجأة على العالم منذ نحو ١٥ سنة ، بحث مُلَّر وأقرانه في ما للاشعة السينية من تأثير في صبغيات الأحياء وما فيها من عوامل الوراثة . وأن هذا التأثير يسفر عن تحولات فجائية عجيبة في نوعها وعددها ، وانها تورّث . ومن ثمّ تقدم بعضهم برأي مؤداه أن الاشعة الكونية أشد نفاذاً عشرات المرات من الاشعة السينية ، فلعلها تؤثر في الأحياء فتحدث تغييراً في تركيب عوامل الوراثة فيها ، وأن تاريخ التطور يشير إلى ان ظهور الانواع الجديدة سار سيراً بطيئاً بعد ظهور الحياة على سطح الارض . ثم أسرع تطور الاحياء فكثر ظهور الانواع الجديدة قبيل العصر الكبري (الجولوجي) وفي اثنائه . ثم تلا ذلك دور كان من أظهر مظاهره بطء التطور . ثم تلاه دور آخر أسرع فيه التطور . وهذا يمكن تعليله بأن الاشعة الكونية لا تأتينا من جميع انحاء الفضاء على السواء وان النظام الشمسي — ومنه الارض — كان في سيره السريع خلال الفضاء يخترق آناً منطقة تكثر فيها الاشعة الكونية فتؤثر في الاحياء كتأثير الاشعة السينية فتكثر الانواع الجديدة ويسرع التطور العضوي ثم يخترق منطقة أخرى تكون الاشعة فيها ضعيفة فيبطؤ التطور ويقل ظهور الانواع الجديدة

فالعلماء في فهم التطور أو أحد ركنيه — وهو ركن الصفات الملائمة للبيئة التي تورث — لا يزالون في أول الشوط .

هدية المقتطف السنوية

لسنة ١٩٤٥

سبعة كتب في كتاب

قام المقتطف في حياته التي بلغت سبعين سنة ، وإلى جانب مجلداته التي بلغت ستة ومائة مجلد ، بخدمة أدبية لا تقل عن خدماته التي أداها للعالم العربي في حياته الطويلة بمجلداته تلك ، إذ جرى على أن يهدي مشتركيه كتاباً يعرّض به احتجاب المقتطف شهرين في نهاية كل سنة . وإذا استعرضت هدايا المقتطف منذ نشأته إلى اليوم وقعت على مكتبة كاملة في التاريخ الطبيعي والفلك والارتياد والكيمياء والفوتوغرافيا والأدب والقصص . وسيضم المقتطف إلى هذه الثروة الأدبية العلمية ثروة جديدة إذ يقدم لمشتركيه عن سنة ١٩٤٥ هدية ممتازة هي الجزء الثاني من كتاب

المنتخبات

بقلم العلامة الكبير احمد لطفي السيد باشا

الذي يضطلع اليوم برياسة مجمع فؤاد الأول للغة العربية بعد أن نشأ جبلاً برمته عند ما كان وئيساً ومرشحها لجامعة فؤاد الأول . هذا إلى ما آثره الأدبية الأخرى التي يغتني بها على الأدب العربي لباساً جديداً بترجمة ارسطوطاليس ، يضاف اليها فصوله الباقية التي نشرها في « الجريدة » ومنها استخلص هذه المنتخبات .

والجزء الثاني من هذه المنتخبات سبعة كتب في كتاب : وهذه موضوعاتها :

الكتاب الاول : في التربية والتعليم

التربية والتعليم — حالة التعليم عندنا — الى القائمين بالتربية والتعليم — مذاهب التربية — المذهب العلمي للتربية والتعليم

الكتاب الثاني : الى نواب الامة

الى نواب الأمة — حريتنا — الحرية ومذاهب الحكم — الاحزاب — حقوق الكافة وسلطة التشريع — حرية التعليم — حرية القضاء — حرية الصحافة — حرية الخطابة — حرية الاجتماع — مذهب الحرية مفيد للافراد وللامة جميعاً — خاتمة

الكتاب الثالث : مشاهدات عامة

اليأس — الحال الأخلاقية — حالنا الاقتصادية — حالنا السياسية — مشاهدة بيكولوجية .

الكتاب الرابع : في اللغة العربية

التأليف باللغة العربية — الى الأمام : في اللغة أيضاً — اللغة العربية — رقوا الفتكم.

الكتاب الخامس : البنات والابناء

أساؤنا وبناتنا — بناتنا وأبناؤنا — البنون والبنات — الى الفتيان : الوطنية .

الكتاب السادس : في التأمل

القدوة الحسنة — الآثار القديمة — آثار الجمال وجمال الآثار — ربيع الحياة — جني القطن — أول العام — الرجل السعيد — الرجل الصريح — زهر الربيع — الصداقة

الكتاب السابع : بحوث عامة

سلطة الأمة — في سبيل الارتقاء — الحرية — اصلاحنا — مصريتنا — المصرية — آمالنا — التقليد — سر تطور الأمم — الحرية الشخصية — خبز السجون — من أجل ذلك نطلب الدستور — حقوق الأمة — الكفاءة الاقتصادية — النظام الاقتصادي — وفاة فتحي زغلول باشا — وداع الوزارة — تأبين أحمد فتحي زغلول بادا — الحرب .

***

هذه سبعة كتب في كتاب تصلك هدية من المقتطف في آخر السنة . وسيتم طبع هذا الكتاب القذ في حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

وترسل الهدية الى الذين سددوا قيمة الاشتراك عن سنة ١٩٤٥ والمشتركين الجدد عن سنة كاملة . وثمن الكتاب لغير المشتركين أربعون قرشاً مصرياً بخلاف البريد .

من بحوث مقتطف ابريل

ألغاز العلم : فؤاد صروف

بلاد العرب القديمة
الأخلاق وتناسخ الشخصيات } اسماعيل مظهر
الضمان الأخلاقي

سر ارثر ادنجتن : قدري حافظ طوقان

اصلاح الخط العربي : دكتور متى عقراوي

كنوز الصحارى المصرية : عبد الحليم الياس نصير

المذهب الشيعي قبيل الدولة الفاطمية وفي أيامها : عطية مصطفى مشرفة

طابع السياسة الدولية بعد الحرب : صلاح الدين الشريف

الاتحاد القومي — داؤه وأدواؤه : ادوار مرقص

نشأة سيادة مصر على البحار : ابراهيم يوسف

الأحلام والروح : أحمد فهمي أبو الخير

بطاقات الوحدة } قسطاس
الواجب

الريف والزراعة في الولايات المتحدة : وديع فلسطين

راقصة الفالس (قصيدة) : عدنان مردم بك

من أنواع النبات : محمود مصطفى الدمياطي بك

باب المراسلة والمناظرة

باب المكتبة

باب الأخبار العلمية

وبحوث أخرى

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السادس بعد المائة

١٩٧ ألغاز العلم : لغز الورقة الخضراء ، لغز بدء الحياة ، لغز الملاءمة في الاحياء : فؤاد صروف

٢٠٣ على هامش الطب : الدكتور سليمان عزمي باشا

٢٠٩ مأثورات

٢١٠ العالم العربي . الحرية عقار أدوائه . إسماعيل مظهر

٢١٦ لحظة الصفر (قصة) : عن بوريس جورياتوف

٢٢١ الضمان الاجتماعي — مشروع بيفردج من ناحيتيه التاريخية والاجتماعية

٢٢٦ حديث ذو شجون

٢٢٧ الدبلوماسية البابوية في محيط السياسة الاوربية : صلاح الدين الشريف

٢٣٤ الريف والزراعة في الولايات المتحدة الأميركية : وديع فلسطين

٢٣٨ الزرمانقة وأصلها : للأب أنستاس ماري الكرملي

٢٤١ والسعون وطبقتها

٢٤٥ اصلاح الخط العربي : دكتور مق عقراوي

٢٥٣ قيود (قصيدة) : محمود أبو الوفا

٢٥٤ تحقيق لغوي في مادة (تلمذ) : عبد السلام محمد هارون

٢٥٩ الخطايا العشر

٢٦٥ الاتحاد القومي داؤه ودواؤه : إدوار مرقص

٢٦٩ ارتياد جزيرة العرب : محمد عبد الغني حسن

٢٧٤ النساءات المتطفلة : رضوان محمد رضوان

٢٧٨ عدو الكذب (قصة) : عن فلاديمير سولوكي ، نقلها حسين المهدي غنام

٢٨١ من أنواع النبات الطبي : محمود مصطفى الدمياطي بك

٢٨٣ باب المراسلة والمناظرة * لطائف ومعارف حول كتاب محمد عبده : الدكتور عثمان أمين ، نشأة البحث العربي عروضيا وبركة : محمد عبد الجواد الاصمعي .

٢٨٨ مكتبة المقتطف * خمسة كتب للاستاذ اسعاف النشاشيبي بك ١ — قلب عربي وعقل أوربي ٢ — سفام ابراهيم ٣ — العربية واحد شرقي والرحباني ٤ — البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي ٥ — الينابيع . التعاليم الربي والزراعي في تركيا الحديثة . رابندرانات تاجور والوحدة الروحية . عطر ودخان . الاخلاق والواجبات .

٢٩٣ باب الاخبار العلمية * من معجزات العلوم والفنون : لويس جندي

٢٩٧ هدية المقتطف لسنة ١٩٤٥